أصـــداء
التّنافس بين الأندلسيّين والمغاربة
في النّثر الأندلسيّ
((استقراء خاصّ بالنّصوص النّرشّيّة))

الدّكتور
رشـود بن محمّد بن رشـود السّلميّ
أستاذ مساعد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها
كليّة اللّغة العربيّة والدّراسات الاجتماعيّة – جامعة القصيم

أصـــداء
التّنافس بين الأندلسيّين والمغاربة
في النّثر الأندلسيّ
.استقراء خاصّ بالنّصوص النّرسّليّة.

الدكتور
رشـود بن محمّد بن رشـود الشّلميّ
أستاذ مساعد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها
كليّة اللّغة العربيّة والدّراسات الاجتماعيّة
جامعة القصيم

تقديم

شَعَرَ المغاربةُ - الذين كان لهم اليد الطُّولى في فتح الأندلس، وفي إسلامها وتعرُّبها بعد ذلك- بقدر كبير من الغيرة، وبشيء من الحسد لأهل الأندلس الذين تفرَّدوا - ومنذ وقت مبكر- بالسِّيادة الحضارية والفكرية في الغرب الإسلامي؛ حيث أصبحت الأندلس مَقَرَّ الزعامة الفكرية والثقافية، فَنَبَغَ فيها - على امتداد الزّمن - عدد كبير من العلماء في المناحي المختلفة، كما نَبُهَ فيها عدد غير قليل؛ من الشعراء والكُتّاب، وأعلام السّياسة وأبطال الحرب . وكان من نتائج ذلك أنْ ظهرت روحِ المنافسة بين البيئتين؛ فالمغاربة يُدلُّون على الأندلسيين بسابق فضلهم، والفاتحون الأوَّلون جُلُّهم من أهل المغرب[1]، بل وكانت الأندلس في بعض فترات تاريخها ولايةً تابعة للمغرب[2] ، أمّا الأندلسيون فقد وجدوا في أعلام بلدهم من الملوك

(١)طارق بن زياد- فاتح الأندلس-كان مغربياً من قبيلة نَفْزَةَ البربريّة، كما كان أكثر جنده الذين تمّ الفتح على أيديهم - وكانوا قريباً من اثني عشر مقاتل-كانوا من البربر كذلك.انظر فجر الأندلس، د.حسين مؤنس:٧٢،والتاريخ الأندلسي (د.الحجّي):٥١، ٥٢ .

(٢) كما هو الحال في عصري المرابطين والموحدين .

والعلماء والأدباء النّابهين، وكذا في بروزهم المبكّر في مجالات العلوم والمعارف والآداب أعظم مَيْزَة، وأجلّ خَصِيصة سبقوا بها غيرهم؛ فسحبوا أذيال الفخر بذلك، وأطنبوا في تعداد مَيزاتهم، وتعداد مآثرهم التي سبقوا إليها، بل وتفرّدوا بها .

وقد ظهرت أصداء هذا التنافس من خلال النثر الأدبي في البيئتين؛ الأندلسية والمغربية، وأصبح ذلك مجالاً واسعاً لكثير من المراسلات المتبادلة بين أدباء البيئتين؛ وصار ذلك المعنى أشبه مايكون بفنّ كتابي تبارى فيه الكُتّاب، إذ حاول من خلاله كل فريق إثبات الميزات الفكرية والحضارية لبيئته .

أهمية الموضوع:

تركّزت عناية الباحثين - في مجال الدراسات الأدبية- على جانب التنافس بين المغاربة بصفة عامّة- ويمثلهم الأندلسيون بالمرتبة الأولى- والمشارقة، حتى أصبح الحديث عن تأثير المشارقة في الأندلسيين موضوعاً لكثير من الدراسات التي عُنيت بالتّاريخ الأدبي للبيئة الأندلسيّة[1] .

ولاشكّ فى أنّ المنافسة بين المنطقتين المشرقيّة والأندلسيّة بدأت في أوّلها خصومة سياسية بين العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس، ثم تحوّلت بعد استقرار الوضع السياسي في الدّولتين إلى تنافس ثقافي وحضاري بينهما، استمرّ أثره طوال

(١) من ذلك مثلاً: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير؛ د.محمد رجب البيومي: ١٠-٢٦، الأدب الأندلسي بين حقيقته ومحاولة اغتياله، د.عبدالله بن علي ثقفان، كتاب الرياض- العدد:٣٢ ، ١٩٩٦م ، في الأدب الأندلسي، د.محمد كامل الفقي: ٥-٥٦، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د.نافع محمود: ٩٩-١٢٢، الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، د.أيمن محمد زيدان، دار الوفاء-الاسكندرية، ٢٠٠٣م .

الوجود الإسلامي في الأندلس، ولذا لم يكن غريباً أن يجلّي الدّارسون إشكاليّة هذه العلاقة[1]، ويرصدوا أبعادها الأدبية والحضارية، فهي إشكاليّة عَرَضَ لها بعض رجالات المنطقتين قديماً[2] .

لكن الموضوع الذي لم يلتفت له الدّارسون كثيراً، ولم يلق حقّه من الرّصد والدّرس والتّحليل؛ جانب التّنافس داخل بيئة المغرب الإسلامي نفسها، لذا آثرت - من خلال هذا البحث - أن أتطرّق للتنافس بين الأندلسيين والمغاربة تحديداً، وأن أقتصر في رصد هذه الظاهره على المراسلات الأدبية والفكرية المتبادلة بين رجالات المنطقتين خاصّة؛ أمّا رصد أصداء هذه الظاهرة في كلّ فنون القول

---

(١) من الدّراسات المميّزة التي تطرّقت لدراسة ملامح العلاقة بين المشارقة والأندلسيين في الجانب الأدبي، وكشفت عن أصول الانتماء الأدبي لديهم دراسة منشورة بعنوان: "الانتماء في الأدب الأندلسي" للدكتور عبدالله بن علي بن ثقفان، مكتبة التوبة- الرياض، ط١ ١٤١٦هـ .

(٢) عقد ابن سعيد الأندلسيّ فصلاً في كتابه "**المُغرب في حُلى المَغرب**" بعنوان "الشُّهُب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة" حاول فيه أن **يُبَيِّنَ فضل المغرب وأن يُبرزَ فضائله**= =دون أن يغمط المشرق حقه، وعلى الرّغم من أنَّ نصَّ ابن سعيد لم يصلنا؛ وذلك نظراً لفقدنا لأجزاء من كتاب المُغرب، إلاّ أنَّ ابن فضل الله العُمَريّ أدرَجَ مُعظمه مع تعليقه على ماأورده ابن سعيد مخالفاً أو مُوافقاً ، وذلك ضمن الفصل الذي جعله العُمَريّ للرَّدّ على ابن سعيد في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" ، وجعل عنوان هذا الفصل "في الإنصاف بين المشرق والمغرب" ، ولأهميّة هذا الفصل فقد تمّ تحقيقه في رسالة علمية، وطُبع استقلالا . انظر: في الإنصاف بين المشرق والمغرب، لابن فضل الله العُمَريّ، تحقيق زينب طاهر ساق الله، دار المدار الإسلامي- بيروت، ط١ ٢٠٠٤م .

وطوال الوجود الإسلامي في الأندلس فسيحتاج إلى جهد مضـــاعف ، بل ربما احتاج لتخصيص رسالة علميّة كاملة للإلمام بكل جوانبه .

وختاماً فهذه الدّراسة محاولةٌ لرصد هذه الظاهرة، والتّـــأريخ لها، وجمع نصوصها، وتحليل ماتضمّنته هذه النصوص مـــن معـــانٍ فكريّة وأدبيّة، وهذا ما سيوقفنا - بالتّالي - على جانب مُشرقٍ مـــن جوانب التأثّر والتّأثير بين البيئتين الأندلسيّة والمغربيّة .

الباحث

الاثنين ١٤٢٦/٢/٢٥هـ

بداية الرّسائل التّنافسيّة بين الأندلسيّين والمغاربة

استشعر الأندلسيون - وفي فترة مبكرة - التّفاوت الحضاري الكبير بينهم وبين المغاربة؛ لذا وجدناهم - في أوّل الأمر - يُيَمِّمُون وجوههم نحو المشارقة، فيدخلون معهم ميدان المنافسة والتّحدّي في مجالات الحضارة والعلوم والمعارف؛ لإثبات وجودهم، بينما تأخّرت المنافسة بين الأندلسيين والمغاربة زمناً طويلاً، لأنّه كان يفصلهم عن المغاربة حضاريّاً وثقافياً بون شاسع وفرق كبير، كالفرق "بين البداوة والحضارة بكل معاني الكلمتين"[1]، وإنّ الأندلسيين - بعد ذلك - لم يدخلوا ميدان المنافسة مع المغاربة لولا ما كان من انتقاد وجّهه بعض المغاربة نحوهم، فكان دخولهم هذا الميدان دفاعاً عن شخصيّتهم لا رغبةً في التنافس مع المغاربة .

وإذا ما حاولنا تتبّع بداية هذا التّنافس بين المنطقتين فسنجد أنَّ مطلع القرن الخامس الهجري شَهِدَ أوّل تسجيلٍ أدبيٍّ لأصداء هذا التّنافس، ولكن من المتصوّر أنْ يَسبِقَ هذا التّسجيل الأدبي فترة كافية يستشعر فيها أهل المنطقتين بتمايُزِهم، وبالتّالي بالغيرة المتبادلة التي تنعكس أوّلاً على التّصرُّفات الفرديّة، ومن ثَمَّ يُصبح ذلك الشّعور - وبمرور الزّمن - جُزءاً من التّكوين المزاجيّ لجماعة الناس في المنطقتين .

وإذا كان هذا التّنافس قد ظهرت بدايته في فترة استقلال المنطقتين سياسياً في مطلع القرن الخامس الهجري كما سبق؛ فإنّ انضواءهما تحت زعامة سياسية واحدة - وذلك في عصري المرابطين والموحدين - لم يُساعد على زوال هذا الشعور بالتّنافس؛ إذ عَمِلَ على إذكائه، لكون السُّلطة السّياسيّة قد أصبحت بيد الجانب الأضعف حضاريّاً وثقافيّاً وهم المغاربة، ممّا عمّق الشّعور بالرّوح

(١) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د.محمد رضوان الدّاية: ٣٦ .

الوطنيّة لدى الأندلسيين؛ " فبلاد الأندلس والمغرب شهدت خلال المائتين السادسة والسابعة ضرباً من المُلاحاة والمُفاخرة بين أدباء البلدين، ولا شكّ أنّ عبور المرابطين ومن بعدهم الموحدين، وماجرى بعد ذلك من الاختلاط والاتّصال الوثيق ولّدَ ضرباً من تجنّي كلّ فريق على الآخر، وقد تفاقم هذا التجنّي فَجَرَّ إلى حروب وفتن معروفة "[1] .

والمُتتبّع لصدى هذا الصّراع في الحياة الأدبية يجد أنّ الأندلسيين كانوا يتّكئون في منافستهم على أصول راسخة، كانت نتاجاً لمرحلة تكوّن فكري اكتمل في مطلع القرن الخامس الهجري، بينما المغاربة – وبخاصّة في بداية هذه الفترة التي نتحدّث عنها – كانت شخصيّتهم الفكريّة تَمُرُّ بمرحلة دقيقة مما جعل الدولتين المرابطيّة والموحديّة بعد ذلك تسهمان – من خلال توحيدهما للمناطق المغربية بالإضافة إلى التّوحّد السياسي والثقافي والحضاري مع الأندلس – في إخراج منطقتهم من منعطف بالغ الدّقة كانت تمرّ به الثقافة العربية والإسلامية في تلكم البقعة .

ومن أوائل النّصوص النّثريّة التي تكشف لنا بداية المُلاحاة بين العُدْوَتَيْن، رسالة كتبها **ابن الرّبيب القيروانيّ**(٢) ووجّهها إلى

---

(١) أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، محمد رضا الشبيبي : ١١٦ .

(٢) هو أبوعلي الحسن بن محمد التّميميّ التّاهرتيّ القيروانيّ، أصله من مدينة تاهرت، وطلب العلم بالقيروان، كان خبيراً باللغة، وشاعراً مُقدّماً؛ من أشهر شعراء بلده في وقته، لم يسلم من بعض التكلّف في شعره، قال عنه ابن رشيق:" بلغ الغاية في الأدب وعلم الخبر والنّسب، وله في ذلك تأليف مشهور" . توفي بالقيروان سنة ٤٢٠هـ .
انظر عنه: أنموذج الزّمان في شعراء القيروان: ٩٤ – ٩٨ ، معجم الأدباء: ٩٩٨/٣ ، إنباه الرّواة: ٣١٨/١ ، الوافي بالوفيات: ٢٣٧/٢ ، بغية الوعاة: ٥٢٥/١ .

الوزير الكاتب أبي المغيرة بن حزم(١)، وفيها يلوم علماء الأندلس على تقصيرهم في تأليف كتب يُشيدون فيها بمفاخر أهل بلدهم، ويُسجلون فيها فضائل علمائهم وميزات قادتهم وعظمائهم،كما نلمس في الرّسالة شيئا من الغمز لبعض ماكانوا ألّفوه من قَبْلُ من الكُتُب .

وقد أجاب أبو المغيرة بن حزم على هذه الرّسالة برسالة طويلة أورد ابن بسّام الشّنتريني أجزاءً منها(٢)، ويبدو أن هذا النّقد من قِبَلِ ابن الرَّبيب قد حرّك نفوس أهل الأندلس؛ لذا انبرى آخرون ــ بعد ذلك ــ للرّد عليه .

ولذا يمكن التّأريخ لظهور التّنافس في الأدب النّثريّ بين العُدْوَتَيْن؛ الأندلسية والمغربية برسالة ابن الرَّبيب وما قام حولها من ردود .

أولاً: المعاني الانتقاديّة التي تضمّنتها رسالة ابن الرَّبيب القيروانيّ

من حسن الحظّ أنّ رسالة ابن الرَّبيب وصلتنا كاملة؛ وهي رسالة معتدلة الطُّول بلغ نَصُّها مايَقْرُب من صفحتين(٣)، لم يستغرق التّقديم منها أكثر من سطرين ثم ولج الكاتب إلى غرضه مخاطباً صديقه الأندلسيّ أبا المغيرة ابن حزم بقوله: " إني فكّرت في بلدكم

---

(١) هو عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم، من مشاهير الوزراء الكُتّاب في عصر الطّوائف، كان بينه وبين ابن عمه أبي محمد بن حزم – العالم المشهور – ملاحاة اقتضت بينهما بعض المراسلات، قال عن ذلك أبومروان بن حيّان:" وجرت بينهما هَنات ظهر عليه فيها أبوالمغيرة، وبكّته حتّى أسكته؛ لأنّه كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظَرْفه، وجودة أدبه " ، توفي أبو المغيرة في طليطلة سنة ٤٣٨هـ .
انظر عنه: الذّخيرة:١/١/١٣٢-١٥٢،١٤٢-١٦٦،مطمح الأنس: ٢٠٢-٢٠٦ ، المغرب في حُلى المغرب: ٣٥٧/١ .

(٢) انظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/ ١٣٦-١٣٩ .

(٣) وردت الرّسالة في الذّخيرة: ١/١/ ١٣٣-١٣٦، ونفح الطّيب: ١٥٦/٣-١٥٨ .

أهلَ الأندلس إذ كان قرارةَ كلِّ فضل، ومَقْصدَ كلِّ طُرْفَة، ومورِدَ كلِّ تُحفة؛ إنْ بارت تجارةٌ أو صناعةٌ فإليكم تُجلب، وإن كَسدتْ بضاعةٌ فعندكم تَنْفُق؛ مع كثرةِ علمائه، ووفورِ أدبائه، وجلالةِ ملوكه، ومحبَّتهم للعلم وأهله، ورفعهم من رَفَعَهُ أدبُه، وكذلك سيرتهم في رجالِ الحرب؛ يُقَدِّمُون مَنْ قَدَّمَتْهُ شجاعَتُه، وعَظُمَتْ في الحروب نكايَتُه، فَشَجُعَ عندكم بذلك الجبان، وأقدمَ الهَيِّبان،ونَبُهَ الخامل، وعَلُم الجاهل، ونَطَقَ العَيِيُ، وشعر البَكِيُ، واستنسر البُغاث(١)،وتَثَغْبَنَ الحُقَّاثُ(٢)، وتنافس الناس في العلوم، ثم هم ــ مع ذلك ــ في غاية التقصير، ونهاية التفريط؛ من أجل أنّ علماءَ الأمصارِ دَوَّنُوا فضائلَ أعيانهم، وقَلَّدُوا الكُتُبَ مآثرَ أقطارهم، وأخبارَ الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاة والعلماء ... وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كلُّ امرىءٍ منهم قائمٌ في ظلِّه لايَبْرَح، وثابتٌ على كَعْبِه لايتزحزح، يخافُ إنْ صَنَّفَ أنْ يُعَنَّف، أو تَخْطَفُهُ الطَّيرُ أوتهوي به الرِّيحُ في مكانٍ سحيق(٣) ..."(٤) .

والرِّسالة تحمل في طيّاتها غمزاً خفيّاً، ونقداً مُبَطَّناً في عدم بلوغ العلوم والآداب منزلة النُّضج، فما يزال قُطْرُ الأندلس بحاجة إلى غيره في كل شيء، حتى إنه " إنْ بارت تجارةٌ أو صناعة فإليكم تُجْلَب، وإن كَسَدَتْ بضاعةٌ فعندكم تَنْفُق؛ مع كثرة علمائه، ووفور أدبائه" وهذه الحاجة مع التشجيع من قِبَلِ ملوك الأندلس المحبّين للعلم وأهله هي التي جعلت أعداداً كبيرة ينتسبون للعلم والأدب وإن لم يكونوا من أهله،حيث شَجُعَ "عندكم بذلك الجبان،وأقدم الهيّبان،ونَبُهَ

---

(١) البُغاث والبَغاث : كل طائر ليس من الجوارح .
(٢) الحُقَّاثُ : حيّة كأعظم مايكون من الحيّات، تأكل الحشيش وإذا حُوربت تنتفخ ولاتؤذي .
(٣) اقتباس من الآية :(٣١) من سورة الحج .
(٤) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٣ ، ١٣٤ .

الخامل، وعَلَمَ الجاهل، ونطق العييّ، وشعر البكيّ، واستنسرَ البُغاث،وتثعبن الحُفَّاث " .

ثم أخذ ابن الرَّبيب يُوَسِّع فكرته حولَ تقصير علماءِ الأندلس في تسجيل مآثرِ بلدهم وفضائلِ أهلها، مُنْكراً تمام الإنكار وجودَ كُتُبٍ لأهل الأندلس تُسَجِّلُ ذلك، فقال مُحاجّاً لأبي المغيرة ابن حزم: " فإنْ قلتَ: إنّه كان ذلك من علمائكم، وألَّفُوا كُتُباً لكنّها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يَصحبها تحقيق، لأنّه ليس بيننا وبينكم إلا رَوْحَةُ راكب، أو دَلْجَةُ قارب، لو نَفَثَ ببلدكم مَصْدُورٌ، لأسمعَ ببلدنا مَنْ في القُبور، فضلاً عَمَّنْ في الدُّور والقصور، وتَلَقَّوا قولَه بالقبول، كما تلقوا ديوانَ ابنَ عبدِ ربِّه منكم الذي سمّاه بالعقد..."(١) .

ومع كون رسالة ابن الرَّبيب تدخل في نطاق المراسلات الإخوانية التي عادة مايتوارى الانتقادُ وراءَ ستارٍ كثيفٍ من عبارات التَّبْجيل والمجاملة التي يتبادلها المتراسلون عادةً إلا أنَّ هذا المعنى الانتقادي لأهل الأندلس يبدو أنه ملأ عليه نفسه؛ ولذا أوجز التَّقديم لرسالته، وولَجَ إلى غرضه بعباراتٍ انتقاديّة صريحة، تَبْلُغُ درجةَ التَّهَكُّم؛ حيث " نَبُهَ في الأندلس الخامِلُ، وعَلَمَ الجاهلُ، ونَطَقَ العَيِيُّ...واستنسرَ البُغاث " .

ولا يَتَّسع صدرُ ابن الرَّبيب لقبول عُذْرٍ يمكن أنْ يَسُوقَهُ أبو المغيرة في جوابه بعد ذلك، ولذا أخَذَ بأسلوب المُحاجَّةِ لإفحامه، وقطعِ السَّبيل عليه .

ولا يخفى أخيراً ما في رسالة ابن الرَّبيب من التَّعالي والزّهو بالذّات؛ حيث نَصَبَ من نفسه مُقاضياً لأهل الأندلس، إلى جانب ذلك يمكن استشعار تبرأتَهُ لأهل بلده مما رمى به الأندلسيين، حيث لم يجعل القضيّة مشتركة بين المنطقتين بل خصّ أهلَ الأندلس دونَ غيرهم .

---

(١) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٥ .

ثانياً: رسالة أبي المغيرة ابن حزم في الرَّدِّ على ابن الرَّبيب

لعل أوّل ما يلاحظ على رَدّ أبي المغيرة ابن حزم طُغيان المجاملة عليه، فكانت رسالته ألصق بالرُّوح الإخوانيّة من كونها ردّاً على ابن الرَّبيب؛ فأثنى في مطلع رسالته على أدب صاحبه، وعلى مقدرته البيانيّة، مُقَرِّظاً الرّسالة التي وصلته، فهي أكبر دليل على إتقانه للصّناعة الأدبيّة، بل وبراعَتُهُ فيها؛ يقول في ذلك: " فوقفتُ على الصّحيفة التي ظاهرها ديباج مرقوم، وباطنها لؤلؤ منظوم، ووشيٌ مَحُوكٌ، وذَهَبٌ مَسْبُوك، فرأيتُ صُوَرَ الأدب باهرةَ المرأى والعيان، شاهدةً لك بأذْلَقِ لسان، وأصدقِ بيان، أنَّكَ أبوعُذْرَتِها، ومالكُ جمالها، وواحدُ فنونها، وقادمَةُ جناحها، وصَبَا ريحها "(١) .

ثمّ أخَذَ يشكرُ ابنَ الرَّبيب على ثنائه على بلاد الأندلس وأهلها، وما تميّزوا به من الحرص على طلب العلم، وتمكنهم من ناصية العلوم والآداب، ممهداً بذلك للرّد على تهمة ابن الرَّبيب في عدم تدوين الأندلسيين لخصائص بلادهم، ومآثر علمائهم وزعمائهم، وكان بداية ردّه الكشفُ عن تناقض ابن الرَّبيب في مقالته فهو يَسِمُهُم بالحرصِ الشّديد على العلوم، وتشجيعهم للمُشتغلين بها، ثم يتّهمهم بإهمالهم في تسجيل مآثر بلادهم وفضائل أهله؛ من العلماء والزعماء وأهل الفضل فيه، فوسمهم بالحرص والإهمال، فأتى بذلك في غاية المحال " وهو إثبات الضّدّين في حال " .

ويُعقِبُ كلامَهُ هذا بالرَّدّ على مقولة ابن الرَّبيب بأنّه لو كان لأهل الأندلس تدوين لفضائل بلدهم وأهلها لَبَلَغَهُ، لقرب المسافة بين العُدْوَتَيْن؛ فيقول: "ثمّ زِدتَ في التّطيل، وبالغتَ في الاجتماع والتّمثيل، باعتمادك تكذيبَ من قال:إنّ الّذي قاله غيرُك لو وَقَعَ لكان قُرْبُ المسافة الّتي هي شَوْطُ جارٍ، بل غَمْضَةُ سارٍ، تُوْجِبُ حلَّ الشّك،

(١) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٦ .

وانجلاءَ الإفك؛ فعجبتُ من أمْنكَ مُراجعاً لايَقْصدُ في أدب المقابلة قَصْدي، ولايَعْقدُ على ساتحِ أُخوَّتك عَقْدي، يجعلُ جَوَابَكَ قَولَ القائل(١):

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لو ناديتَ حَيّاً ∴ ولكنْ لاحياةَ لمن تُنادي

...فقد نادينا لو أسمعنا .. وما أشبهنا بالغَريبةِ الّتي خَيْرُها يُدْفَن، وشَرُّها يُعْلَن...

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحاً ∴ عَنْهُ وماسَمِعوا مِنْ صالحٍ دَفَنُوا(٢) ... (٣)

وتكاد تكون هذه العباراتُ الأخيرةِ أقصى ما وَصَلَ إليه رَدُّ أبي المغيرة على صديقه المغربي، ويُلاحظُ مع ذلك أنّه حاولَ التزامَ المجاملة حتى في هذا الموقف، فجعلَ الرَّدّ على لسان غيره؛ ليسلم من التَّبِعَة، ولايُتَّهَمَ بالمُخاشنة في الرَّدّ على صديقه .

لذا نراه يعتذر – بعد هذا – عن ضعف رَدِّه على ابن الرَّبيب بصدقِ مَوَدَّته له؛ فهي التي حَبَسَتْ لسانَه، وعَطَّلت بَنَانَه، أو على حَدِّ قوله: " وإنَّ وُدّاً عَقَلَ لك لساني، ولم يَجْرِ إلاّ بما تُؤثِرُه وتختارُه بَنَاني، لَوُدٌّ يَفْضَحُ الرَّوْضَ في حَزْنِه، بِرَائقِ حُسْنِه، ورَضْوَى في هَضْبِه، بِثِقَلِ وَزْنِه، ونَوْءِ السِّماك في هَتْنِه، بِوَابِلِ مُزْنِه.."(٤) .

وهذا الأسلوب المجاملُ فيه أفضى إلى طولِ الرّسالة وإسهابها، بالإضافة إلى عدم القُوَّة والتّركيز والحزم في الرَّدّ، وهذا ماجعل ابن بسّام – صاحب الذّخيرة – يكتفي بأجزاء يسيرة من هذه الرّسالة، ويُبَرِّرُ صنيعه بقوله: " وخَرَجَ أبو المغيرة في رسالته إلى هذا التّطويل؛ وبالغ في الاحتجاج بفصولٍ هي عَادِلَةٌ عن هذا السَّبيل"(٥).

---

(١) ديوان كُثيِّر عزّة : ٢٢٢ ، ونُسب البيت لغيره .

(٢) البيت لقُعْنُب بن أم صاحب؛ الحماسيّة " ٦٠٧" ، شرح ديوان الحماسة،للمرزوقي: ٣/١٤٥٠ .

(٣) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٤) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٩ .

(٥) الذخيرة : ١ / ١ / ١٣٩ .

ونتيجة لهذا الضعف في الرَّدّ كان من المتوقّع أن ينبري عَلَمٌ من أعلام الأندلس للدّفاع عن قُطْرِهِ وأهلِ بلده، فَيُجَلِّي فضائلَهم، ويُبْرِزَ مآثرهم، بقوة وحزم، لتندفعَ التُّهمةَ ويَثْبُتَ الفَضْلُ؛ لكنْ هل كان الدّافعُ الحقيقي لكتابة الرّسالة التّالية ضعفُ الرَّدّ ؟ أم أنها كُتِبَتْ بوحيٍ من رسالة ابنِ الرَّبيب مباشرةً، ودون الوقوف على ردّ أبي المغيرة؟! هذا ما سيأتي بيانه بعد هذا بإذن الله .

ثالثاً: رسالة أبي محمّد بن حزم(١)

إنّ النّاظر في تاريخ الأندلس بعامة يجد أن أبا محمد ابن حزم يُمثّلُ قمةً من القمم الّتي تناهت إليها ثقافةُ وفكرُ الأندلسيين، مما يجعل بيانَ موقفه من التّنافس الحضاري والفكري بين العُدوَتَيْن المغربية والأندلسية في غاية الأهمية .

لذا فإنّ هذه الرّسالة التي ألّفها ابن حزم في "فضل الأندلس وذكر رجالها"(٢) أصبحت ذات منزلة كبيرة لدى الدّارسين في مجال

---

(١) هو الإمام أبومحمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد في قرطبة سنة ٤٨٣هـ في بيت جاه وثروة وسلطان؛ فوالده كان وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ثم نالت آل حزم نكبة ضاع فيها كثير من أموالهم وقصورهم وكتبهم. كان أبومحمد بن حزم فقيهاً متكلّما، وعالماً لغوياً، ومؤرّخاً بارعاً، وأديباً مقتدراً، ألّف كثيراً من الكتب في فنون مختلفة؛ غير أنّ كثيراً منها ضاع في النّكبات التي أصابته . توفي – رحمه الله – سنة ٤٥٦هـ. انظر في ترجمته: الصلة: ٤١٥– ٤١٧ ، جذوة المقتبس: ٢/٤٨٩– ٤٩٣ ، المغرب في حلى المغرب: ١/٣٥٤–٣٥٧ ، نفح الطيب: ٢/٧٧–٨٤، ٣/١٥٨–١٨٦ . وقد ألّف في ترجمته كتب مستقلة منها:
– ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه، د/ عبدالكريم خليفة، دار الطباعة العربية – بيروت .
– ابن حزم حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي–القاهرة ١٩٥٤م .
– ابن حزم صورة أندلسية، د/ طه الحاجري، دار الفكر العربي– القاهرة .
– ابن حزم الكبير، د/ عمر فرّوخ، دار لبنان–بيروت ١٤٠٠هـ

(٢) هكذا ورد اسم الرّسالة لدى ابن خير الإشبيلي في فهرسته: ٢٢٦ وتُسمّى أحياناً "بيان فضل الأندلس وذكر علمائه" وهذا ماسمّاها به بالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي:٢٢٠ ،والتسمية الأولى أدقّ؛ فالرّسالة غير مختصّة بذكر العلماء، بل هي في رجالات الأندلس بعامّة .=

التأريخ لفكر الأندلسيين، وتُعَدُّ – كذلك – " ثبتاً بما أنتجه كثير من علماء الأندلس في شتى حقول المعرفة " وهي من جانب آخر تكشف "عن سعة ثقافة ابن حزم واطلاعه الواسع على تيار الحركة الفكرية في وطنه "(١) ، "ومقدرته على تقويم المصنّفات ونقدها . وقد شملت جميع أنواع المعرفة؛ من تاريخ وأخبار وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وعدد وهندسة وكذلك علم الكلام، والحديث وغيره..."(٢) . وهذا ماجعل من هذه الرّسالة – بعد ذلك – مصدراً مهمّاً اعتمد عليه أكثر الدّارسين لتطور الحركة العلميّة والأدبيّة في الأندلس .

سبب تأليف الرّسالة:

لم يَدَعْ ابن حزم ــ رحمه الله ــ لأحدٍ مجالاً للبحث عن سبب كتابة رسالته؛ حيث صرّح بذلك في مطلعها، وجعل ذكرَ السبب مدخلاً مناسباً، ومُقدّمةً استغرقت من حجم الرّسالة ما يربو على صفحة ونصف . ومُلَخَّصُ ذلك أنَّ رسالةَ ابن الرَّبيب القيروانيّ وَقَعَتْ في يَدِ أبي محمّد بن حزم عرضاً بينما كان يُقَلِّبُ كُتُبَ صديقه أبي بكر محمّد ابن إسحاق(٣) ورأى ما فيها من إتحاءٍ باللائمة على علماء بلده،

=وقد وردت الرّسالة في نفح الطّيب: ١٥٦/٣ ، ثم نشرها الدكتور إحسان عبّاس في" عصر سيادة قرطبة" ، وقد ضمّ الدكتور صلاح الدّين المنجّد هذه الرّسالة مع رسالتي ابن سعيد والشّقنديّ وطبعها تحت عنوان "فضائل الأندلس وأهلها" . دار الكتاب الجديد– بيروت ، دون تاريخ .

وطُبعت الرّسالة – بعد ذلك – مُستلّة من النّفح ضمن رسائل ابن حزم الواقعة في أربعة مجلدات، وذلك بتحقيق الدكتور إحسان عبّاس، وستكون الإحالة عليها في هذا المصدر الأخير .

(١) الحياة العلميّة في عصر ملوك الطّوائف في الأندلس؛ د/ سعد بن عبدالله البشريّ: ٣٨٦ .

(٢) ابن حزم الأندلسيّ حياته وأدبه؛ د/ عبدالكريم خليفة : ١٧٨ .

(٣) هو أبوبكر محمد بن إسحاق المهلبيّ الإسحاقي، جاءت ترجمته

واتهامهم بعدم تخليدهم لمآثر أعلامهم وفضائل بلدانهم، ثم إنّه ــ بعد ذلك ــ جرى ذكر لهذه الرّسالة في مجلس أمير ألبونت(١) أبي عبدالله محمد بن عبد الله بن قاسم(٢) فاستشرفت نفس الأمير بالرَّدّ عليها، أو كما يقول ابن حزم: " فرأيته ــ أعزّه الله تعالى ــ حريصاً على أن يُجَاوَبُ هذا المُخاطب، وراغباً في أن يُبَيَّنَ له ما لَعَلَّهُ قد رآه فنسي، أو بَعُدَ عنه فَخَفِي، فتناولتُ الجوابَ المذكور..."(٣) ، ولذا فإن ابن حزم يُحَقِّق - في آنٍ واحدٍ - رغبةً شخصيّة له، واستجابةً لمطلبٍ رسميّ في كتابته لهذا الرَّدّ، ولعل الرّغبة الشخصيّة هي الدّافع الأقوى التي جعلت الرّسالة تتّسم بِنَفَسٍ واحدٍ من أولها إلى آخرها.

مختصرة لدى المترجمين؛ فالحميدي لم يزد بعد ذكر اسمه على= =قوله:" من أهل الأدب والفضل، وهو الذي خاطبه أبومحمد علي بن أحمد برسالته في فضل الأندلس"، كما وردت بعض الإشارات عنه في صفحات متفرّقة من طوق الحمامة، ويبدو أنه كان صديقاً حميماً لابن حزم؛ حتى إنه رافقه في رحلته عندما ترك قرطبه بعد أن نهبها البربر. انظر: جذوة المقتبس: ١/ ٨٣ ، طوق الحمامة: ٣٣، ٤٠، ١٥٦، ١٩٦ .

(١) أَلْبُونْت أو أَلْبُنْت: إمارة صغيرة من إمارات ملوك الطوائف، على مقربة من شنتمرية الشرق، استقل بها بنو القاسم الفهريون، وقد قام بها في بداية الفتنة عبدالله بن قاسم الفهري فأسّس فيها إمارة توارثها أبناؤه. انظر: دول الطوائف، محمد عبدالله عنان: ٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٢) يُمْنُ الدّولة، هو ثاني أمراء بيت بني القاسم، ولي إمارة ألبونت بعد وفاة والده سنة ٤٢١هـ، كان معتنياً بالعلم وأهله، فكان بلاطه موئلاً للعلماء والأدباء . توفي سنة ٤٣٤هـ .
انظر: أعمال الأعلام: ٢/ ٢٠٨ ، الذيل والتكملة: ٦/ ٢٣٩ ، دول الطوائف (عنان): ٢٦١، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف (د. البشري): ١٥٨ .

(٣) رسائل ابن حزم: ١٧٢/٢ .

لكن هل اطلع ابن حزم على رسالة ابن عمّه أبي المغيرة ورأى ما فيها من المجاملة ؟! فانبرى للوقوف ضدّ دعوى ابن الرَّبيب بوحي من ذلك الرَّدّ المُجَامِل[1] .

الحق أنّ أبا محمد ابن حزم يصرّح في مطلع رسالته بعدم معرفته للشخص الذي وُجِّهَتْ له رسالة ابن الرَّبيب؛ فيقول مخاطباً صديقه أبا بكر المهلبيّ: " وإني لما احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك... لمحت عيني في تضاعيفها دُرْجاً فتأمّلته، فإذا فيه خطابٌ لبعض الكُتّاب من مُصاقبينا في الدّار، إلى رجل أندلسيّ لم يُعَيِّنْهُ باسمه، ولاذكر نَسَبَه "(٢) .

ومع هذا فمن حقّنا أن نقف مستغربين!!فكون الرّسالة موجهة فى الأصل لأبى المغيرة ابن حزم أمرٌ معروف لدى المتقدّمين والمتأخرين؛ بدليل أنّ ابن بسّام – وهو معاصر لابن حزم – ذكر ذلك في ذخيرته، وأورد بعدها مباشرة ردّ أبى المغيرة عليها،ومثل ذلك رأيناه لدى صاحب النّفح؛لكن ألا يمكن القول بأن تجاهل أبي محمد ابن حزم لاسم المرسل إليه–وهو ابن عمّه–وكذا ردّه على تلك الرّسالة له سبب آخر؟!

فابن بسّام يذكر خصومةً شديدةً قامت بين الرّجلين، كان لها صداها الواسع في عصرهما؛ حتى إنها خلّفت مراسلاتٍ وأشعاراً أورد

---

(١) هذا ما يؤكّده الدّكتور محمّد الحبيب بن الخوجة؛ حيث يرى بأنّ أبا محمّد بن حزم لم يكن ليكتب رسالته هذه لو كان أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم "قد أحسن الجواب، وقدّم ما يمكن اعتماده ويرجع إليه في إبراز محاسن الأندلس والتّنويه بها . فقد اكتفى ابن عمّ ابن حزم بإجابةٍ تضمّنت كثيراً من اللّطف والمجاملة" لذا انبرى أبومحمّد بن حزم للرّدّ وإقامة الحُجَّة عليه .
حضارة الأندلس من خلال رسالتي ابن حزم والشّقنديّ، ضمن أبحاث ندوة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب:٥١ .

(٢) رسائل ابن حزم: ١٧١/٢ .

ابن بسّام شيئاً منها، بل ويُصَرِّح ابنُ بسّام بأنّ مكانة وشهرة أبي المغيرة – في تلك الفترة – كانت أعظم من مكانة وشهرة أبي محمّد، إلا أنّ أبا المغيرة اعتُبِطَ شاباً؛ يقول ابن بسّام في هذا كُلِّه: " وشَجَرَ الأمرُ بينه وبين الفقيه أبي محمّد بن حزم – ابن عمّه – وجرت بينهما هَنَاتٌ ظَهَرَ عليه فيها أبو المغيرة، وبَكَّتَه حتّى أسكته، لأنّه كان أنْبَهُ من أبي محمّد في حضور شاهده، وذكاءِ خاطِرِه، وحُسْنِ هيئته، وبراعَةِ ظَرْفِه، وجودةِ أدَبِه"(١)، فهل كل ذلك التجاهل بسبب هذه الخصومة؟! هذا أمر غير مستبعد، خاصةً لمن عَرَفَ حِدَّةَ مزاج أبي محمّد – رحمه الله – وعرف الفترةَ التي كُتبت فيها هذه الرّسالة، وهي الفترة التي كان يحاول فيها أبو محمّد الحصولَ على مجد سياسيّ، ومكانةٍ مميزة في مجتمعه، قبل أن يَتَخَلَّى عن ذلك كُلِّه، وينصرفَ إلى العلم بِكُلِّيَتِه، ولعلّ بيانَ تاريخ تأليف الرّسالة يكشفُ عن شيء من ذلك.

تاريخ تأليف الرّسالة:

لم يحدّد أبو محمّد بن حزم ــ رحمه الله ــ تاريخ تأليف رسالته بصورة قاطعة، إلا أنّ الرّسالة حملت في طيّاتها بعضَ الإشاراتِ التي يمكن من خلالها وضعَ تاريخ تقريبيّ لذلك؛ فهي قد كتبت بإشارة من أمير "ألبونت" محمّد بن عبد الله بن قاسم الذي حكم في الفترة مابين سنة ٤٢١-٤٣٤هـ، فتأليف الرّسالة وقع قطعاً في هذا التاريخ، ومما يزيد الأمر تحديداً أنّ ابن حزم يذكر صراحة أنّه يردّ على ابن الرَّبيب بعد وفاته؛ أو كما يقول: "بعد أن بلغني أنّ ذلك المُخَاطِبَ قد مات، رحمنا الله تعالى وإياه"(٢) وابن الرَّبيب كما تذكر كتب التراجم توفي سنة ٤٢٠هـ .

---

(١) الذّخيرة : ١ /١ / ١٣٣ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢ / ١٧٢ .

أما أبرز الإشارات وأكثرها قرباً من التّحديد فقوله مفاخراً بابن شهيد: " ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد(١) صديقنا وصاحبنا وهو حيّ بَعْدُ، لم يبلغ سنّ الاكتهال"(٢) ، وابن شهيد كما نعلم توفي سنة ٤٢٦هـ ، وقد لازمه المرض - الذي توفي فيه - بشدة سنة ٤٢٥هـ، مما يُضَيِّق الدّائرة في ذلك مابين سنتي ٤٢١-٤٢٥هـ .

أما ما يترجّح عندي - وأكاد أقطع به - أنّ هذه الرّسالة أُلِّفَتْ سنة ٤٢٣هـ، ففي ذي القعدة من سنة ٤٢٢هـ كان قد أُطيحَ بهشام المعتدّ بالله الأمويّ، وكان ابن حزم وزيراً له، ونودي في قرطبة بأن لايبقى فيها أحد من بني أمية وأتباعهم(٣)، فهذه النّكبة آخر مشاركة لابن حزم في أدوار سياسية مهمّة، وانصرافه بصورة تامّة للمعرفة تَعَلُّماً وتعليماً وتأليفا .

أقسام الرّسالة وأبرز معانيها:

يمكن تقسيم الرّسالة من حيث مضامينها إلى ثلاثة أقسام يتقدمها تمهيد أو مدخل .

أما المدخل ففيه بيان سبب التأليف - وهو ما ذكرناه سلفاً - إلى جانب ذلك يذكر ابن حزم بأنّه سيجعلُ الخطابَ مُوَجّهاً لصديقه أبي بكر المهلبيّ؛ وذلك لوفاة ابن الرّبيب - صاحب الرّسالة الأولى -

---

(١) هو أبو عامر أحمد بن عبدالملك بن أحمد بن عبدالملك بن شُهَيد الأشجعيّ، ولد في قرطبة سنة ٣٨٢هـ، شاعر ناثر ناقد، من أشهر أعماله "رسالة التّوابع والزّوابع"، وله ديوان شعر مطبوع، لم يُعمّر طويلاً، توفي سنة ٤٢٦هـ. انظر عنه: جذوة المقتبس: ١/ ٢٠٩ - ٢١٣، الذخيرة: ١/١/ ١٩١- ٣٣٦، طمح الأنفس:١٨٩ -٢٠١، المطرب: ١٥٨-١٦٣، المغرب في حلى المغرب: ١/٧٨-٨٥ .

(٢) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٨٨ .

(٣) انظر ماورد في معجم الأدباء(تحقيق د/إحسان عبّاس):٤/١٦٥١ .

مع تعليل للدّافع الذي جعله يوجّه الخطاب لصاحبه دون سواه(١)؛ يقول ابن حزم: " فتناولتُ الجوابَ المذكورَ، بعد أن بلغني أنَّ ذلك المُخَاطِبَ قد مات – رحمنا الله وإياه – فلم يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مَغْنى، فلسنا بمسمعين مَنْ في القبور، فصرفتُ عِنان الخطاب إليك؛ إذ من قِبَلِكَ صِرْتُ إلى الكتاب المُجَاوَب عنه، ومن لدنك وَصَلَت إليَّ الرّسالةُ المُعَارِضَة، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وَصَلَ كِنايةٌ لمن غاب عنه مِنَ أخبارِ تآليف أهلِ بلدنا، مثلما غاب عن هذا الباحث الأوّل ... فإنّك وإنْ كنتَ المقصودَ والمواجَه؛ فإنّما المرادُ مِنْ أهلِ تلك النّاحيةِ مَنْ نأى عنهم عِلْمُ ما استَجْلَبَهُ السّائلُ الماضي "(٢) .

---

(١) أوقعَ توجيهُ ابنُ حزم الخطابَ لصديقه أبيبكر المهلّبيّ أحَدَ الباحثين في خطأ واضح؛ حيث افترض أنّ رسالة ابن الرّبيب كانت موجّهة أساساً نحو أبي بكر المهلّبيّ، وأنّ ابن حزم رأى رسالة لصديقه أبي بكر يُجَاوب فيها ابن الرّبيب، فكتبَ ابن حزم رسالته هذه تعضيداً للآراء التي ذَهَبَ إليها ذلك الصّديق في رسالته؛ أو كما يقول الدكتور/ امحمد بن عبود:" ذكر ابن حزم مراسلة أحد أصدقائه – هو أبوبكر محمد بن إسحاق – مع قيروانيّ في موضوع فضائل الأندلس العلميّة والثقافيّة، وهذه المراسلة تؤكّد التواصل الثقافيّ بين علماء الأندلس والمغرب العربيّ، والحوار بين القطرين رغم الاختلاف في الآراء والمواقف بينهما. وذكّرَ ابنُ حزم اطّلاعه على رسالةِ صديقه الأندلسيّ، وعَبَّرَ عن تضامنه مع الموقف المُدافِع عن الهويّة الثقافية الأندلسية في رسالة صديقه، ممّا يدلّ على وجود تعاون ثقافيّ في الأندلس بين علمائها وأدبائها " .
الهويّة الثقافية الأندلسية من خلال رسالة ابن حزم، د/ امحمد بن عبود (ضمن أبحاث ندوة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب) : ٣٨ .

(٢) رسائل ابن حزم : ٢ / ١٧٢ .

القسم الأول من الرّسالة:

يُؤسّسُ ابنُ حزم في هذا القسم بعضَ القواعد العامّة الّتي على أساسها تتبني فضيلةُ الأندلس بُقْعَةً وسُكّاناً؛ فبدأ الحديثَ عن فضيلة البُقْعَة أو البيئة المكانيّة مقرونةً بخِصال الآباء الفاتحين، فجعل الأساس الأوّل لحديثه الاستدلال الشرعي، ثم ما دلّتْ عليه المعايشةُ والخبرة بعد ذلك.

وعلى الرغم من أنّ مآثر الأندلس ألّف فيها - كما يذكر ابن حزم - أحدُ مؤرخيها وهو أحمد بن محمد الرّازيّ(١) عدداً من الكتب؛ إلا أنَّ ابن حزم أراد أن يُدلي في ذلك بدلوه، ويشارك فيه برأيه، وذلك بما يتناسب وحدود الرّسالة؛ فكان ابن حزم يرى أن فاتحي الأندلس هم ثاني الجماعتين اللّتَيْنِ ذكرهما النّبيُ ﷺ بأنهم يركبون ثَبَجَ البحر غُزاةً في سبيل الله، وهو يشير بذلك للحديث الصّحيح وفيه: أنَّ النّبيَّ ﷺ نام في بيت خالته من الرّضاعة أمّ حَرام بنت مِلْحَان ثمّ استيقظ وهو يضحك، قالت فقلت: ما يُضْحِكُكَ يارسول الله؟ قال: ناسٌ من أمّتي عُرِضُوا عَلَيّ غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، مُلُوكاً على الأسِرَّة، أو مثل الملوك على الأَسِرَّة، قالت:فقلتُ: يارسولَ الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه، فنام، ثمّ استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت:ما يُضحِكُكَ يارسول

---

(١) هو أبوبكر أحمد بن محمّد بن موسى الرّازيّ، ولد سنة ٢٧٤هـ، كان واسع الحفظ للأخبار فعُرف باسم التّاريخيّ لكثرة اشتغاله بالتاريخ، وكان - كذلك - جغرافياً أديباً شاعراً ولُغويّاً، ألّف عدداً من المؤلفات من أشهرها"أنساب مشاهير أهل الأندلس" و "صفة قرطبة وخططها" و"أعيان الموالي" ، ولم تصلنا كتبه؛ ولكن المؤرخين المتأخرين نقلوا عنها كثيراً. توفي - رحمه الله- سنة ٣٤٤هـ. انظر: طبقات النحويين واللغويين: ٣٠٢ ، جذوة المقتبس: ١٦٨/١، بغية الملتمس: ١٥١، تاريخ الأدب العربي (د/ عمر فرّوخ): ٤/ ٢٣٨-٢٤١ .

الله؟ قال: ناسٌ من أُمّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سبيل الله، كما قال في الأولى، قالت يارسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأوّلين، فَرَكِبَتْ أمُّ حَرام بنت مَلْحان البحرَ زمنَ معاوية، فَصُرِعَتْ عن دابّتها حين خرجت من البحر فهَلَكَتْ (١) .

وابن حزم يقطع بأن الجماعة الثانية هم فاتحو الأندلس، وهذا مصدر فخر يلهج به، "وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بَشَّرَ به،ووصف أسلافنا المجاهدين فيه،بصفات الملوك على الأسرّة ... لكفى شَرَفاً بذلك؛ يَسُرُّ عاجلُه، ويَغْبِطُ آجِلُه "(٢) .

وإلى جانب مَيْزَةِ الأندلس الثّابتة بِنَصٍّ شرعيٍّ فإنَّ موقعَ البلاد الأندلسيّة مُؤَهِّلٌ لكلِّ فضيلة؛ فها هي قرطبة - عاصمة الأندلس زمن ابن حزم ومسقط رأسه - تَقَعُ في أفضل أقاليم الأرض، وهي مماثلةٌ في ذلك لـ"سرَّ مَنْ رأى" في بلاد العراق، ولذا يقول ابن حزم متباهياً بهذه الميزة: "فَلَنا مِنَ الفهم والذّكاء ما اقتضاه إقليمُنا ... فلها (أي قرطبة) من ذلك - على كل حال - حظٌّ يفوق حظَّ أكثر البلاد ... وقد صَدَّقَ ذلك الخُبْرُ، وأبانته التّجربة، فكان أهلها من التَّمَكُّنِ في علوم القراءات والرّوايات، وحفظ كثير من الفقه، والبَصَرِ بالنّحو والشعر واللغة والخَبَرِ والطّب والحساب والنّجوم، بمكانٍ رَحْبِ الفِناء، واسِعِ العَطَنِ، متنائي الأقطار، فَسيحِ المجال "(٣) .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد، باب الدعاء بالجهاد .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢ / ١٧٣ .
(٣) رسائل ابن حزم : ٢ / ١٧٤، ١٧٥ .

تفنيد دعوى بأن الأندلسيين لم يؤلفوا في فضائل بلدهم:

وبعد هذا التأسيس للفضيلة الأندلسيّة بُقْعَةً وسُكّاناً بدأ ابنُ حزم بمعالجة عدد من القضايا التي تُعَدُّ أساسيّة في مجال الرَّدّ على ابن الرَّبيب، فكان أوّلها تَفْنِيدٌ لدعواه بأنّ الأندلسيين لم يُؤَلِّفوا في فضائل بلادهم، وعَدَّ ذلك في حال ثبوته - وهو لايثبت عنده - أمراً مشتركاً بين العُدْوَتَيْن الأندلسيّة والمغربيّة؛ لكنّ ابن حزم وهو يَنْقُضُ هذه الدعوى من أساسها يُثْبِتُ عكس ذلك، فأهل الأندلس أصحابُ فضلٍ على المغاربة في هذا الجانب، حيث ألّفوا عدداً من الكتب عن بلاد المغرب، بينما لانجد علماء المغرب يؤلّفون عن بلادهم إلا عدداً نزراً من المؤلّفات " فهذه القيروان بلد المُخاطب لنا، ما أذكرُ أنّي رأيتُ في أخبارها غيرَ ((المُغرِب عن أخبار أهل المغرب)) وحاشا تآليف محمد بن يوسف الورّاق(١) فإنّه ألّف للمستنصر - رحمه الله تعالى - في مسالك إفريقيا وممالكها ديواناً ضخماً، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمة، وكذلك ألف ــ أيضاً ــ في أخبار تيهرت(٢) ووهران وتونس وسِجِلْمَاسة ونَكُور(٣) والبصرة(٤) وغيرها تآليف حساناً، ومحمد هذا أندلسي الأصل

---

(١) أبوعبدالله محمد بن يوسف الورّاق التاريخيّ،ولد سنة٢٨٢هـ،نشأ في القيروان ثم هاجر إلى قرطبة، يُعدّ ماذكره ابن حزم في رسالته عنه المصدر الأوّل الذي اعتمد عليه المترجمون له. توفي سنة ٣٦٣هـ.
انظر عنه: جذوة المقتبس: ١٥٨/١، بغية الملتمس:١٤١،التكملة لابن الأبّار:٣٦٦/١ ،تاريخ الأدب العربي(بروكلمان):٩٤/٢ .

(٢) وتسمّى كذلك تاهِرْت، من مدن المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) انظر الرّوض المعطار: ١٢٦.

(٣) مدينة بالمغرب بالقرب من مدينة مليلة.انظر الرّوض المعطار:٥٧٦ .

(٤) المقصود بصرة المغرب: مابين طنجة وفاس ،وكانت قريبة من مدينة أصيلة . انظر الرّوض المعطار: ١٠٨، ١٠٩ .

والفرع؛ آباؤه من وادي الحجارة(١)، ومدفنه في قرطبة وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان "(٢) .

وهكذا قَلَبَ ابنُ حزم الحُجَّةَ على المُخاطَب فجعل للأندلسيين مؤلفات في هذا الجانب، تجاوزوا فيها حدود منطقتهم، وشملوا فيها بلد المدَّعِي عليهم بالتّقصير، إلى جانب عدد من البلدان التي تقع في حَيِّزِ العُدْوَة المغربية بصورة عامة .

تحديد الشخصيّة الأندلسيّة:

والقضية الثانية الرئيسة التي كانت فيما يبدو تشغلُ بالَ ابن حزم فعالجها بتوسُّعٍ وتفصيل شديدين؛ قضيّةُ تحديد معالم الشخصية الأندلسية، أو الإجابة على التساؤل القائل من هو الأندلسيّ ؟!

وفي الإجابة على ذلك يرى ابن حزم أن الأندلسيّ هو من عاش في الأندلس سواءً أكان من أهلها أم ممن هاجر إليها، ويشترط مع ذلك أن يبقى فيها إلى حين وفاته؛أو كما يقول:"وذلك أنّ جميع المؤرِّخين من أئمتنا السّالفين والباقين – دون محاشاة أحد، بل تَيَقَّنا إجماعهم على ذلك – مُتَّفقُون على أنْ يَنْسِبُوا الرَّجُلَ إلى مكانِ هجرته التي استقرَّ بها، ولم يرحل عنها رحيل تَرْكٍ لسُكْناها إلى أن مات "(٣) .

ويَظْهَرُ انفعالُ ابن حزم بما يقول من خلال صيغة حكايته لإجماع أئمة الأُمَّةِ على الرأي الذي ذهب إليه، وهو أسلوب نجد ابن حزم يستخدمه في مواضع غير يسيرة من كتاباته، ولذا نراه بعد هذه الصِّيَغِ الجازمة والمُلْزِمَةِ بقبولِ رأيه في تحديد شخصيّة الأندلسيّ يقول ماضياً في هذا التّيار الانفعالي: " فَمَنْ هاجَرَ إلينا من سائر

---

(١) وهي مدينة تعرف بمدينة الفَرَج، بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً . الرّوض المعطار: ٦٠٦.

(٢) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٥ .

(٣) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٥ .

البلاد فنحن أحقُّ به، وهو منّا بحُكْمِ جميع أُولي الأمْرِ منّا؛ الّذين إجماعهم فَرْضٌ اتّباعُه، وخِلافُهُ مُحَرَّمٌ اقترافُه"(١) .

والحق أنَّ إلزامات ابن حزم - رحمه الله - التي تجعل المخالف لما يرويه من إجماع الأئمة على القول الذي يراه، ويَعُد المُتَنَكِّبَ عن رأيه واقعاً في مخالفة شرعية تدخله في دائرة الحُرْمَة والإثم أسلوبٌ دَرَجَ عليه في كثيرٍ من مناقشاته .

والنّاظرُ في هذا الرّأي لابن حزم - والذي فَصَّلَهُ بعد ذلك بشكل أوسع - يجد أنّه يُغْفِلُ جانبَ النّشأة والتّكوين للشخصية تماماً؛ فيكفي الرَّجُلَ- بمافي ذلك المبدعون من العلماء والأدباء - أنْ يعيش في الأندلس مُدَّةً وجيزةً ويُتَوَفَّى فيها ليكون أندلسياً؛ حتى لو كانت هذه المُدَّةُ لاتزيد عن بضعة أشهر، كما أنّ مَنْ نشأ وترعرع في الأندلس ورحل عنها رحيل ترك لها وتوفي بعد رحيله ولو بمدة يسيرة فإنّ سِمَةَ الأندلسي تسقط عنه، ويُنْسَبُ إلى البلد الذي هاجر إليه، وابن حزم يَزِيْدُ الأمرَ جلاءً بضرب الأمثلة الموضّحة لرأيه فيقول: " فَمَنْ هاجر إلينا مِنْ سائر البلاد فنحن أحقّ به ...ومَنْ هاجر منّا إلى غيرنا فلاحظَّ لنا فيه،والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لانَدَعُ إسماعيلَ بنَ القاسم(٢)، فكذلك لانُنَازِعُ في محمد بن

(١) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٦ .

(٢) هو أبوعليّ إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي البغداديّ، ولد في ديار بكر سنة ٢٨٨هـ، ثم ارتحل إلى بغداد وسمع من كثير من علمائها، ثم اشتُهر فيها بالعلم، استدعاه الحكم المستنصر وكان وليّا للعهد إلى الأندلس، فدخلها سنة ٣٣٠هـ ونزل قرطبة ونشر علمه بها، توفي - رحمه الله - سنة ٣٥٦هـ . انظر طبقات النحويين واللغويين: ١٨٥-١٨٨،تاريخ علماء الأندلس (ابن الفرضي): ١٣٨/١، جذوة المقتبس: ١/ ٢٥٢-٢٥٦ . وللباحث عبدالعلي الودغيري دراسة عنوانها " أبوعلي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس" نشر اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي - الرباط ١٩٨٣م .

هانيء(١) سوانا ، والعَدْلُ أولى ما حُرِصَ عليه ، والنَّصَفُ أفضل ماذُعِيَ إليه"(٢) .

ومِنْ حَقِّنا هنا أنْ نتساءل هل يَلزمُنا الأخذُ بمقياس ابن حزم بحرفيّته؟! أم أنّه ينبغي أنْ لانُغْفِلَ أمراً أساسيّاً ومؤثراً في تكوين الشخصيّة ورسم معالمها، وإبراز مكنوناتها ؟!

الحقّ أنّ جانب النّشأة والتّكوين الثقافيّ للمرء هو المُرتَكَزُ الأساسيّ في رسم معالم شخصيّته،وبمقدار ظهور أثر البيئة والتّكوين يبدو التّفاوت والتّمايز بين أفراد البيئات المختلفة؛ فالمرء ابن بيئته – سواء أكانت بيئة مكانية أم ثقافية أم غير ذلك – وإذا ماصيغت تلكم الشخصية على يَد تلك البيئة، وتحت بصرها فإنّ آثارها التي انطبعت في النّفس وكوّنت نزعاتها الفكريّة، واتجاهاتها الإبداعيّة لايمكن أنْ تنطمسَ بعوامل الهجرة، بل ربما يزيدها البُعْدُ عن مكان النّشأة قوةً وعمقاً .

لكن ما الذي دَفَعَ ابنَ حزم – رحمه الله – إلى نِسْبَةِ الرَّجُل إلى مكان هجرته والتّشبث بذلك، وتأثيم مَنْ خالفه دون النّظر إلى جانب التّكوين الثقافيّ والفكريّ له؟! هل كان ذلك لمجرّد التّقليد المعتاد بِنِسْبَةِ الرَّجُل لمكان هجرته ؟!

---

(١) هو أبوالقاسم محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزْديّ، ولد في قرية سكون من ضواحي إشبيلية سنة ٣٢٠هـ، ثم انتقل إلى قرطبة فنهل من علوم عصره، ونبغ في عدد من المعارف إلاّ أنه تميّز في قرض الشعر، مدح بعض أمراء مدن الأندلس، رحل إلى الزّاب في المغرب الأوسط في حدود سنة ٣٤٩هـ، ثم انتقل إلى بلاط المعزّ الفاطميّ في القيروان ومدحه بكثير من شعره، أزمع على الانتقال إلى القاهرة بعد انتقال المعزّ إليها، إلا أنّه وجد مقتولاً بالقرب من بَرقة وذلك سنة ٣٦٢هـ .
انظر عنه:مطمح الأنفس:٣٢٢-٣٣٢،المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٩٧-٩٩،تاريخ الأدب العربي(فرّوخ):٤/ ٢٦٦-٢٧٧ .

(٢) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٦ .

الحقُّ أنَّ ابنَ حزم – وهو المعروف بتفكيره الحر، وآرائه الجامحة عن ميدان التّقليد – لم يكن ليرتضي هذا الرأي دون أنْ يكون له مايبرّره، ولعلّ مِنْ أوائلِ مَنْ أدركوا ذلك الدكتور إحسان عباس حيث رأى بأن اختيار ابن حزم لهذا التّحديد للشّخصيّة الأندلسيّة " يُحَقِّقُ أمرين هامين في نظره؛ أولهما: أنّه كان يعلم أنّ الثقافة الأندلسيّة حتى عصره ...كانت نتاجَ جهودِ شارك فيها عدد غير قليل من المهاجرين، الّذين ألّفوا في موضوعات أندلسيّة، أو واكبوا أحداث الأندلس، أو أرادوا بما كتبوه خدمة الطُّلاّب الأندلسيين، ولهذا كان استثناء هذه الحركة الثقافيّة أمراً غير طَبَعي؛ فضلاً عن أنّه يَحْرِمُ الأندلسَ جهودَ أناسٍ عاشوا فيها حتى وافاهم الأجل هنالك . وثاني الأمرين: أنّ ابن حزم كان ينظر إلى بعيد؛ وذلك أنّه حين يَعُدُّ المهاجرين إلى الأندلس – دون ترك لها – أندلسيّين فإنّه يشمل بذلك جميع الدّاخلين إليها منذ بداية الفتح، وبذلك يَمنَحُ الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي صفَةً من القِدَمِ والعراقة "(١) .

والمتأمّل – أخيراً – في رأي ابن حزم عن تحديد الشخصية الأندلسية يمكنه أنْ يَعُدَّهُ تعبيراً عن منهج ارتضاه، وحاول فيه التزام العدالة والإنصاف "فَمَنْ هاجرَ إلينا من سائر البلاد فنحن أحقّ به ... ومَنْ هاجر منّا إلى غيرنا فلاحَظَّ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به"، ولايسعنا حيال ذلك إلا احترام وجهة النّظر هذه، دون أن نجعلها مُلْزِمَةً لنا، وهذا بخلاف ما حاول ابن حزم – رحمه الله – أن يفعله من هذه النّاحية .

(١) تاريخ الأدب الأندلسي"عصر سيادة قرطبة": ٤٤ .

قلّة التأليف عن فضائل البلدان سمة مشتركة:

ومع كون ابن حزم - رحمه الله - كان قد نفى في مطلع هذا القسم الأوّل تهمةَ ابن الرَّبيب في عدم تأليف الأندلسيين في فضائل بلادهم وأثبت خلاف ذلك، إلا أنّه عاد مرةً أخرى ليؤكد أنّ قلّةَ التأليف في هذا الجانب - وليس انعدامه - سمةٌ مشتركة بين الأندلس والمشرق، وأخذَ يُثبت هذا الرأي من خلال الاستقراء، وذلك بتعديده لمؤلفات المشارقة عن مناطق بلادهم ورجالها؛ وهو تعديد يكشف عن جانب آخر من ثقافة ابن حزم، ويُجلّي عن شموليتها؛ فهي ثقافة لم يكتف فيها بمعرفة ما أنتجته بيئته الأندلسية بل تعدّاها لمعرفة ومتابعة كلّ جديد يُبدعه أهلُ البيئات الأخرى .

وهذا كُلُّهُ يظهرُ في قوله:" **وهذه بغدادُ حاضرة الدّنيا، ومعدن كلّ فضيلة، والمحلّة التي سبق أهلُها إلى حمل ألوية المعارف، والتّدقيق في تصريف العلوم، ورِقّة الأخلاق والنّباهة والذّكاء وحِدّة الأفكار ونفاذ الخواطر**، وهذه البصرة عَيْنُ المعمور في كلّ ماذكرنا؛ وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، ولَمّا سائر التّواريخ التي ألّفها أهلها فلم يَخُصُّوا بلدتهم دون سائر البلاد..وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجُرجان وكَرمان وسجستان والسّند والرّي وإرمنية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضّخمة(١) فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قُصِدَ به أخبار ملوك تلك النّواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها"(٢).

وإلى جانب ما سبق ذكره يُبْرِزُ هذا النّص شخصية المشرق الثقافية والفكرية كما يراها ابن حزم، كما يظهر إعجابه بمبلغ ما

---

(١) جميع هذه المناطق التي ذكرها ابن حزم كانت الثقافة العربية الإسلامية تُمثّل الأساس الأوّل لحياتها الفكريّة في تلك الفترة، وبقي الأمر كذلك في كثير منها مدّة من الزّمن، إلاّ أنّ حادثة اجتياح التّتار لمشرق البلاد الإسلامية قد أدالت اللسان العربيّ فيها، فلم تعد العربية لغة التأليف فيها إلا نادراً .

(٢) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٦ .

وصلت إليه الحركة العلمية في صورة تلك المؤلّفات التي عدّدها، وفي أثناء ذلك " نلمحُ شعورَ ابن حزم بأندلسيته ومباهاته ببلده؛ الذي يَعتَبِر حضارة العراق مَثَلَهُ الأعلى، والأنموذجَ الذي يُحتذى، بل إنّ لمراكز الحضارة العربية الإسلامية في المشرق مكانة عظيمة في نفسه "(١) .

سبب قلّة تآليف الأندلسيين عن رجالهم:

وقبل أنْ يُنْهِي ابنُ حزمٍ القسمَ الأوّلَ من رسالته أرادَ أنْ يكْشِفَ عن السّبب الذي جعل الأندلسيين لايُكثرون من التأليف عن فضائل رجال بلدهم، فرأى أن سبب ذلك أمرٌ مشترك مع المناطق الأخرى؛ألا وهو زهدُ أهلُ كلِّ بَلَدٍ بِمَنْ يَنْبُهُ من أهل بلدهم، واحتفاؤهم – مقابل ذلك – بالغريبِ عنهم، وإنْ كان أقلّ تَمَيُّزاً من بَلَدِيِّهم ، وأخذ يَستدلّ على ذلك بالقول المشهور " أزْهَدُ النّاس في عالمٍ أهْلُه(٢)"، وعَضَدَ استدلاله ضارباً المثلَ بما حَصَلَ للنّبي ﷺ مع عشيرته قريش؛ لكنّ أهل الأندلس – وكما يرى ابن حزم – قد أرْبَوا في ذلك على غيرهم.." ولاسيّما أندلسنا؛ فإنها من حَسَدِ أهلها للعالم الظّاهرِ فيهم، الماهرِ منهم، واستقلالِهم كثيرَ ما يأتي به، واستهجانِهم حسناته، وتَتَبُّعِهم سَقَطاتِه وعثراته، وأكثر ذلك في مُدَّةِ حياته، بأضعافٍ مافي سائرِ البلاد. إنْ أجَادَ قالوا: غَثٌّ باردٌ، وضعيفٌ ساقطٌ، وإنْ باكَرَ الحيازَةَ لَقَبَ السَّبْقِ قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تَعَلَّمَ؟ وفي أيِّ زمان قرأ؟ ولأمِّهِ الهَبَل(٣)"(٤) .

---

(١) أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ: ٢١٣ .

(٢) ورد هذا المثل على أكثر من صيغة. انظر سوائر الأمثال: ٣٩٨، مجمع الأمثال:٢/٣،٩١/٢٧٨ .

(٣) لأمّه الثّكل، وفي الأمثال هَبِلَتْه أمُّه. أساس البلاغة: ٤٧٨ ، مجمع الأمثال: ٣/٥٠٢ .

(٤) رسائل ابن حزم: ٢ / ١٧٧ .

ويبدو أنَّ ابن حزم كان يستشعر أثناء كتابة هذه الرّسالة مرارةً بالغةً، وأسىً شديداً؛ فمع كونه أحد رجالات الأندلس المميّزين علماً وإبداعاً إلا أنّه لم ينل شيئاً من التّقدير في زمنه، بل عانى من كثير من المؤامرات والدّسائس نتيجة لهذا التّميّز، لذا نجده يُفصّلُ في هذا المعنى ويَكْشِفُ عن معاناة شخصيّة تَتَّضِحُ قسماتها من خلال رسمه لزوايا دقيقة لهذا المعنى لايمكن أن يصدر إلا عن معاناة ومعايشة، كلُّ ذلك نلحظه من وصفه لمعاناة المُبْدِعِ الأندلسيّ بصورة عامّة؛ فإذا ما أبدع الأندلسيّ شيئاً لم يعهده أهل بلده " صار غَرَضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتّسبُّبِ إليه، ونهباً للألسنة، وعُرْضةً للتَّطَرُّق إلى عرضه، وربما نُحِلَ مالم يَقُلْ، وطُوِّقَ مالم يَتَقَلَّد، وأُلحقَ به مالم يَفُهْ به، ولا اعتقده قَلْبُه"(١) .

وليس هذا فحسب بل إنَّ المبدع الأندلسيّ إنْ " تَعَرَّضَ لتأليف غُمِزَ ولُمِزَ، وتُعُرِّضَ وهُمِز، واشتُطَّ عليه، وعُظِّمَ يسير خَطْبِه، واستُشنِعَ هَيِّن سَقَطه، وذهبت محاسنه، وسُتِرت فضائله"(٢) ، حتى المبدعين من أهل الأدب لم يسلموا من ذلك .. " وهكذا عندنا من ابتدأ يَحُوكُ شعراً، أو يعمل رسالةً؛ فإنّه لايَفْلَتُ من هذه الحبائل"(٣)، ويكاد كلّ ماتقدم أنْ يكون وصفاً دقيقاً لكلّ ماحصل لابن حزم نفسه، وهذا مانعرفه من سيرة حياته، فهو بسبب آرائه غير التّقليديّة قد عانى كثيراً، كما لم يسلم في مؤلفاته من النّقد كذلك، وإلى جانب ذلك وقف فئةٌ من أهل عصره من نتاجه الأدبي موقف العائب المُنْتَقِص .

(١) رسائل ابن حزم: ٢/ ١٧٧ .
(٢) رسائل ابن حزم: ٢/ ١٧٨ .
(٣) رسائل ابن حزم: ٢/ ١٧٨ .

القسم الثاني من الرّسالة:

يتميّز هذا القسم في كونه ثَبَتاً مطوّلاً لا لكل ما ألّفه الأندلسيون بل لما يرى ابن حزم – رحمه الله – بأنه من عيون تآليف أهل بلده، وهي تآليف – بحسب رأيه – بلغت الغاية في الحسن، وحازت فضل السبق في مجالها .

ويمكن القول بأنّ ابن حزم أوردَ أسماءَ مؤلفات في جميع العلوم والمعارف التي كانت معروفة في زمنه، وخَصَّ كلَّ لونٍ منها بقسم؛ فذكرَ مؤلفات في الفقه والتّفسير وعلوم القرآن والحديث والتّراجم والتّاريخ واللّغة والشّعر والأخبار والطبّ والفلسفة والعَدَد والهندسة وعلم الكلام، ويلاحظ على إيراده لهذه الفنون أنّه ربما استطردَ في ذكر الكتب المميّزة للمؤلّف الواحد وإنْ لم تكن كلّها ضمن الفنّ الذي خَصَّه بالحديث .

ولايُفهم أنّ هذا الثَّبَتَ لأسماء المؤلَّفات في المعارف المختلفة قد اقتصر فيه على مجرّد التّعداد والسَّرْد لها، بل إنّ فكرةَ تَشيُّعُ أثناء ذلك تؤكّد في جانب منها على الشّعور بالذّاتيّة الأندلسية الخلاّقة، أو لِنَقُلْ يَشيعُ فيها مايُشبه الشّعور القوميّ؛ حيث التفت الأندلسيون إلى ماضيهم فأساغوه، واهتمّوا بحاضرهم فعايشوه، ودفعتهم بينتهم الخاصّة إلى محاولة التّميُّز والظُّهُور؛ ولذا نراه لا يَمَلُّ التّأكيد في كل جزئية من حديثه هذا عن فضل التّراث الأندلسي ودوره في الحضارة الإنسانيّة، وبيان منزلة أقلام رجاله الذين سطّروا تاريخه، ودوّنوا معارفه المختلفة (١) .

ومن جانب آخر فإن هذا القسم من الرّسالة يعطي صورةً عمّا بلغته العلوم والآداب زمن ابن حزم؛ حيث " أصبحت المعرفة في

(١) انظر ملامح التّجديد في النّثر الأندلسيّ خلال القرن الخامس الهجريّ، (د. السيوفي) : ٢١٨ .

الأندلس في القرن الخامس الهجري أندلسية بالدّرجة الأولى، وتتضح أهمية هذا التحول الجذري أو هذه الثورة الثقافية في شتى مجالات المعرفة، وهذا لايعني أن العلماء الأندلسيين انفصلوا عن جذورهم بانحرافهم عن اتجاه أسلافهم في الأندلس وفي المشرق؛ بل لقد أخصبوا هذا التقليد الثقافي والفكري لينتجوا عطاءً جديداً وأصيلاً وأندلسياً بكل مافي الكلمة من دلالة "(١) .

(١) جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجريّ، د.امحمد بن عبّود : ٢١٩ .

تفرّد الأندلسيين في بعض مجالات التأليف:

والتّأكيد من قِبَلِ ابن حزم على جِـدَّة المؤلفـات الأندلسـية وبراعة مؤلفيها وتميّزهم، والافتخار بذلك كلّه نراه في كلّ جزئيـات هذا القسم من الرّسالة؛من ذلك قوله مُثنياً على بعض المؤلّفات: "فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لاأستثني فيه أنه لم يُؤلّف في الإسلام تفسير مثله"(١)، "وهما مُصنّفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ماليس في كثير من المُصنّفات"(٢)، "وهو كتاب لاأعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً،فكيف أحسن منه"(٣)، "لا أعلم مثله في فَنِّه البتَّة "(٤) ،"وما رأيت لمالكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وتأليفها وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها"(٥)، "وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلّف مثله في بابه"(٦) " لم يؤلّف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل "(٧)، "ولئن قلنا إنّه لم يُؤلّـف فـي الطّب أجمعَ منه، ولا أحسن للقول والعمل في الطّبائع لَنَصدُقَنّ"(٨) .

ومثل ذلك نجده في حديثه عن بعض المؤلّفين؛ من ذلك قوله: " وما أعلم هذه الرُّتْبَةُ لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفالـه في الحديث وجودة شيوخه "(٩) ، " فصارت تآليفُ هذا الإمام الفاضل قواعدَ للإسلام لانظير لها "(١٠) .

---

(١) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٨ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٩ .
(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٩ .
(٤) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٠ .
(٥) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨١ .
(٦) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨١ .
(٧) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٢ .
(٨) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٥ .
(٩) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٨ .
(١٠) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٩ .

تفوّق رجالات الأندلس على المشارقة:

والتَّفَوُّق المعرفيّ لدى علماء الأندلس وبراعة تآليفهم وابتكارها في كافة مجالات العلوم والمعارف كل ذلك لايَثْبُتُ لدى ابن حزم إلا من خلال مقارنة بينهم وبين المشارقة علماً وتأليفاً، وهي مقارنة نُدرِك من خلالها إعجابَ ابن حزم وإجلاله لما بلغته المعرفة في بلاد المشرق زمن العبّاسيين؛ ومع هذا لاتراه مأسوراً بهذا الإعجاب وذلكم الإجلال للمشرق، بل نراه يُؤكِّدُ تفوّق أهلِ بلده على المشارقة في كثير من جنبات العلم، ولذا نراه يحلو له المقارنة بين علماء المنطقتين وإبداعاتهم، وينتهي في كثير من مقارناته إلى إثبات براعة الأندلسيين وتفوّقهم في كثير من ضروب التأليف، وابن حزم يضع بهذا الصنيع - بحسب رأي أحد الباحثين - " أساساً جديداً لِمَفاخِرِ البلدان، فهو يرى أن العلم وحده ينبوع الفضائل، وأن العلماء وحدهم هم الذين يحقّ للبلدان أنْ تَتَفاضَلَ بهم، وهذا يُعَدُّ تطوراً جديداً في أدب المفاضلات بين البلدان "(١) .

ومُقارنةُ ابنُ حزمٍ بين البيئتين الأندلسية والمشرقية مع التأكيد على تَمَيُّزِ أهل الأندلس نجده بادياً في عدد من مقاطع هذا الجزء من رسالته، وذلك من مثل قوله عن أحد التَّفاسير الأندلسيّة: " فهو الكتابُ الذي أقطعُ قطعاً لاأستثني فيه أنَّه لم يُؤلَّفُ في الإسلام تفسيرٌ مثلَه، ولا تفسيرُ محمد بن جرير الطَّبريّ ولاغيره "(٢) ، ويقول عن كتاب آخر في الحديث: " ومنها مُصَنَّفُهُ في فضل الصّحابة و التّابعين ومن دونهم، الذي أربى فيه على مُصَنَّفِ أبي بكر بن شيبة ومُصَنَّفِ عبد الرّزاق بن همّام ومُصَنَّفِ سعيد بن منصور وغيرها، وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه "(٣) .

---

(١) أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ : ٢١٤ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٨ .
(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٩ .

ويقول عن كتاب ثالث في الحديث كذلك: " ومنها كتاب المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى، وهو خير منه انتقاءً، وأنقى حديثاً، وأعلى سنداً، وأكثر فائدة "(١) ، وعن رابع في أسماء الرِّجال يقول: " ومنها كتاب شيخنا ... في المختلف والمؤتلف في أسماء الرِّجال، ولم يَبْلُغْ عبدُ الغني الحافظ البصريّ في ذلك إلا كتابين، وبلغ أبو الوليد - رحمه الله تعالى - نحو الثلاثين، لا أعلم مثلَه في فَنِّه البتَّةَ "(٢) .

ووفقاً للمقياس الذي ارتضاه تحديداً للشخصية الأندلسية يجعل أبا علي القالي أندلسياً ويُفاخر بنتاجه العلمي، ويجعلُ له مَزِيَّةً على ما يُشاكله من جهد المشارقة؛ من ذلك قوله عن كتاب الأمالي والذي يعرف أيضاً بالنَّوادر: " وكتاب النَّوادر لأبي علي إسماعيل بن القاسم، وهو مُبَارٍ لكتاب الكامل لأبي العبّاس المبرّد، ولعمري لئن كان كتابُ أبي العبّاس أكثر نحواً وخبراً، فإنّ كتابَ أبي علي أكثر لغةً وشعراً "(٣) .

وفي مجال الاختيارات الشّعريّة يُفاضل فيقول: " وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فرج(٤) عارض به كتاب الزّهرة لأبي

---

(١) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٧٩ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٠ .
(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٢ .
(٤) هو أحمد بن محمد بن فرج الجيّانيّ، وينسب إلى جدّه أحياناً فيقال أحمد بن فرج، كان أحد ثلاثة إخوة شهروا بالشعر في عهدهم، إلا أنّ أبا عمر كان أبعدهم صيتاً في الشعر والتأليف، ألّف كتابه "الحدائق" للحكم المستنصر،مُعارضاً به كتاب"الزّهرة" لابن داود الظّاهريّ؛ ولإن كان كتاب الزهرة وصلنا فإنّ كتاب الحدائق قد فُقِد؛ إلاّ أن بعض المصادر أكثرتْ النّقل عنه كما في الجذوة للحُميديّ، والحُلّة لابن الأبّار . توفي ابن فرج مسجوناً على يد الحكم المستنصر بسبب وشاية بلغته عنه ، وكانت وفاته- على اختلاف بين المصادر- مابين سنة ٣٦٠-٣٦٦هـ .
انظر عنه: جذوة المقتبس:١/١٦٩، ١٧٠، بغية الملتمس:١٥١-١٥٣،الصلة:١/٦،٥،المغرب في حلى المغرب:٢/٥٦، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٢٨٣

بكر محمد بن داود – رحمه الله تعالى – ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائةَ باب، في كل باب مائةُ بيت، وأبو عمر أوردَ مائتي باب في كل باب مائةُ بيت، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يُورِدْ فيه لغيرِ أندلسيٍّ شيئاً، وأحسنَ الاختيارَ ماشاء وأجاد، فبلغ الغاية، وأتى الكتابُ فَرْداً في معناه "(١) .

وابن حزم يَدْفَعُ عن رسالته سمةَ التَّزَيُّد التي قد يُتَّهَمُ بها فيؤكِّد على أنّه لم يخص بالذِّكر إلا تلكم المؤلَّفات التي أضافت إبداعاً، وجَرَتْ في ميدان التَّأليف الأصيل؛ أما الكتب التي لم يتحقَّق فيها هذا الشَّرط فلم يورد منها شيئاً، وهي أكثر من أنْ يُلِمَّ بها الحصر؛ فيقول: "وإنما ذكرنا التآليفَ المُستَحقَّةَ للذِّكر، والتي تدخل تحت الأقسام السّبعة التي لايُؤَلِّفُ عاقل عالم إلا في إحداها؛ وهي إمّا شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يُتمّه، أو شيء مُستَغْلِق يشرحه، أو شيءٍ طويلٍ يختصره دون أنْ يُخِلَّ بشيء من معانيه، أو شيءٍ مُتَفَرِّقٍ يجمعه، أو شيءٍ مُختَلِط يُرَتِّبُه، أو شيءٍ أخطأ فيه مُؤَلِّفُهُ يُصلِحُه .وأمّا التآليف المُقَصِّرَةُ عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها،وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أنْ نحيط بعلمها "(٢)

(١) رسائل ابن حزم: ٢/ ١٨٣ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٦ .

التأكيد على اتسام موازناته بالعدالة والإنصاف:

وإلى جانب ذلك نرى ابن حزم يحاول أنْ يَتَّصِفَ بالعدالة والإنصاف في كلِّ ماذهب إليه، ولذا نراه في موضعٍ - وهو يُطري أحد المؤلَّفات الأندلسية - لا يَبْخَسُ مكانةَ مُؤلِّف آخر مشرقي كان قد سمعَ به ولم يقف عليه؛ فيقول: "ومنها تاريخ أحمد بن سعيد(١) ماوَضَعَ في الرِّجال أحدٌ مثلَه، إلاّ ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي(٢)، ولم أرَه"(٣).

ومن جانب آخر فمع ما تكشف عنه هذه الرّسالة من عمق الثقافة، وسعة الاطلاع، وشمولية المعرفة لدى ابن حزم إلا أنها تُبَيِّنُ - إلى جانب ذلك - مصداقيّة أبي محمد وبُعدَهُ عن التَّزيُّد والادعاء؛ فهو حين " يستعرضُ أنواع المعارف وشتّى المُصنَّفات، ويُقَوِّمُها تقويمَ الواثق بعلمه، وبمقدرته على التّمييز " نراه " إذا ما تصدّى لأنواعٍ من المعارف ليس له فيها نفاذ؛ فإنّه يُشيرُ إلى ذلك بصراحته المعهودة، ويكتفي بإيراد رأي أولئك المتخصّصين الذين يَثِقُ بعلمهم"(٤)؛ ومن ذلك حديثه عن "العدد والهندسة" حيث يقول: "وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ، ولاتحقّقنا به، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المُحْسِنِ من المُقَصِّرِ من المؤلِّفين فيه من أهل

---

(١) هو أحمد بن سعيد بن حزم الصَّدَفيّ، ولد سنة ٢٨٤هـ، وله رحلة للمشرق سمع فيها عن كثير من أهل العلم، ثم انصرف إلى الأندلس فصنَّف تاريخاً في المُحدِّثين بلغ فيه الغاية، ولم يزل يُحدِّث إلى أن توفي سنة ٣٥٠هـ .
انظر عنه: جذوة المقتبس: ١/ ١٩٨، ١٩٩ ، تاريخ علماء الأندلس: ١/ ٩٦-٩٨ .

(٢) لعله يعني أبا جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي، صاحب كتاب الضُّعفاء، المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وكتابه مطبوع .

(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٠ .

(٤) ابن حزم حياته وأدبه : ١٠٤ .

بلدنا، إلاّ أنّي سمعتُ مَنْ أثقُ بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتُّفِقَ على رسوخه فيه يقول..."(١).

تقييم ابن حزم لمؤلفاته:

وابن حزم وهو ينهي تعداده لأبرز المؤلَّفات الأندلسية المُبْدَعَةِ في شتّى العلوم لم ينس حظّ نفسه، فجعل الحديثَ عن مؤلَّفاته خاتمةً لهذا القسم الثاني، وقد اكتفى في ذلك بحديث عام عن جهده، ولم يُسَمِّ شيئاً من أعماله البارعة؛ تواضعاً منه - رحمه الله - : " ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أهل الحديث كتاب في هذا المعنى، وهو وإن كان صغير الجرم، قليل عدد الأوراق .. فعظيم الفائدة،(٢) ... ولنا فيما تحقّقنا به تآليف جَمَّةٌ؛ منها ماقد تَمَّ، ومنها ما شارف، ومنها ما قد مضى منه صدرٌ، ويعين الله على باقيه، لم نقصد به مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السُمعة فَنُسمِّيها، والمراد بها ربُنا جلّ وجهه، وهو ولي العون فيها "(٣) .

السِّرّ في عدم الموازنة بين مؤلّفات الأندلسيين والمغاربة:

وختاماً لهذا القسم من الرّسالة يمكننا أن نتساءل عن السّبب الذي جعل ابن حزم - رحمه الله - يَنصرفُ في هذه الجزئية من رسالته عن المفاخرة وذكر فضل الأندلسيين على المغاربة - الذين منهم ابن الرَّبيب صاحب الرّسالة التي يَرُدُّ عليها أصلاً- إلى الوقوف إزاء المشارقة، وإعلانه تفوق أهل بلده عليهم في كثير من العلوم؟!

الحقُّ أنَّ العُدْوةَ المغربية - في تلك الفترة - لم يكن لديها رصيد علمي وحضاري كاف يمكن أنْ يُقارن بما لدى الأندلسيين، ولذا لم يُرِدْ ابن حزم أنْ يُدخِلَ الأندلس في حلبةِ المنافسة مع بيئةٍ ليس

---

(١) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٥ .

(٢) لعله يعني كتاب "المُجَلّى" الذي شرحه - بعد ذلك - بكتابه المشهور "المُحَلّى" .

(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٦، ١٨٧ .

بينها وبين الأندلس أدنى مجال للمقارنة، فبلاده لايدانيها إلا بلاد المشرق؛ حيث توازيها في أشياء، بل وتتفوّق عليها الأندلس في أشياء أخرى.

وهذا ما دَفَعَ أحدَ الباحثين المغاربة المعاصرين إلى القول: " ومع ذلك، فإنّنا لا نستغرب افتخار الأندلسيين بإنجازاتهم الثقافية والفكرية والحضارية، ونرى ذلك سلوكاً عادياً، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار تفوقهم على المشارقة في مجالات متعددة، ثم تفوقهم على المغاربة في جل فروع المعرفة السائدة خلال القرون الوسطى في المغرب والأندلس .

وباستثناء الثقافة الشعبية الشفوية، لم توجد في المغرب حسب المقاييس الأندلسية ثقافة قبل القرن الخامس الهجري ... وليس سهلاً عَلَيَّ – بصفتي مغربياً – أنْ أُصَرِّحَ بهذه الحقيقة"(١).

كما نجد باحثاً مغربياً آخر يُثبتُ حقيقةَ " **تَخَلّف المغرب زمنياً عن الأندلس في ولوج الثقافة العربية الإسلامية ولوجاً كافياً بقرنين** – على الأقل – ممّا وضعه في احتياجٍ إلى الأخذ عن الأندلس والاستفادة من تجربتها"(٢)، ولم يكن هذا مقتصراً على الفترة الأولى بل بقي الاتصال وثيقاً بين العُدْوَتين "في المستوى البشري والفكري، وظلّت على أشدّها إلى نهاية الوجود العربي بالأندلس"(٣) .

إذاً ففي الوقت ألذي كانت فيه المعرفة الأندلسية قد بلغت أوج عظمتها وتألُّقها في القرن الخامس الهجري كانت العُدوَة المغربية

---

(١) جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، د/امحمد ابن عبود: ٢٢١ .

(٢) التّعاون المغربي الأندلسي في مجالات الفلسفة والعلوم الدقيقة، محمد زنيبر، ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والغرب : ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق: الصفحة نفسها .

تعيش مرحلة البداية، فالمقارنة بين المنطقتين غير منطقيّة؛ بل متعذرة عناصرها أصلاً، وهذا ما دفع ابن حزم - رحمه الله - إلى نزول ميدان المنافسة مع المشارقة فحسب؛ فهم الفئة التي يمكن المقارنة بهم، لا أهل المغرب الذين كانوا ما يزالون يتلمّسون بدايات الطريق، والذين كان لأهل الأندلس - بعد ذلك - الفضل الأكبر في تأسيس وازدهار الحركة العلمية والأدبية فيها .

وقد يَرِدُ هاهنا تساؤل مرتبط بما سبق ألا وهو ، ما العامل الرئيس الذي دفع البيئة الأندلسية دون غيرها من البيئات المجاورة لها إلى هذا التميز العلمي؟! ولم يَدَع ابن حزم - رحمه الله - هذا التساؤل دون إجابة ، فأرجعه إلى عاملين هما : إخلاص العلماء ، وتشجيع الحُكّام والأمراء ، وإجابته عن ذلك تظهر من خلال قصّة أوردها ؛ حيث قال : "وهاهنا قصّةٌ لاينبغي أنْ تخلو رسالتنا منها وهي: أنَّ أبا الوليد عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن الفرضي(١) حدّثني أنّ أبا الجيش مجاهداً(٢) صاحب الجزائر

(١) أحد أعلام عصره، ولد سنة ٣٥١هـ، خلّف جملة من المؤلفات لم يصلنا منها إلاّ كتابه "تاريخ علماء الأندلس" وهو من أجل كتب تراجم العلماء الأندلسيين التي وصلتنا، وقد ذيّل عليه ابن بشكوال كتابه "الصلّة". قُتل - رحمه الله - في داره في فتنة قرطبة سنة ٤٠٣هـ . انظر في ترجمته: الصِّلة: ١/٢٥١-٢٥٥ ، بغية الملتمس: ٣٣٤-٣٣٨، جذوة المقتبس: ١/٣٩٦-٣٩٩ .

(٢) هو الموفّق مُجاهد بن عبدالله العامريّ، تغلّب أيام سقوط دولة موالية العامريين على الجزائر الشرقية فأنشأ دولة له،كان جليل القدر، له غزوات بحرية ضدّ النصارى، وكان محبّاً للعلماء مُحسناً لهم، وفد عليه أفراد الشعراء وجلّة العلماء، كما اجتمع عنده من الكتب مالايكاد يجتمع لغيره . توفي في مدينة دانية سنة ٤٣٦هـ . انظر عنه: جذوة المقتبس: ٢/٥٦٤-٥٦٦ ، المغرب في حلى المغرب: ٢/٤٠١، أعمال الأعلام: ٢/٢١٧-٢٢٠ .

ودانية(١) وَجَّهَ إلى أبي غالب(٢) - أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها - ألفَ دينار أندلسية، على أنْ يَزِيدَ في ترجمة الكتاب المذكور ((مما ألّفه تمّام بن غالب لأبي الجيش مجاهد)) فردّ الدّنانير، وأبى منه ذلك، ولم يفتح في هذا باباً البتّة، وقال: والله لو بذل لي الدّنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزتُ الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة، بل لكل طالب عامّة، فاعجب لهمّةِ هذا الرّئيس وعلوّها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها "(٣) .

(١) يقصد بالجزائر، الجزر الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، وهي التي تعرف بجزر البليار، أمّا دانية فهي إحدى المدن التي تقع في شرق الأندلس .

(٢) هو أبوغالب تمّام بن غالب المُرسيّ يُعرفُ بابن التَّيّانيّ، من أعلام اللغة الضّابطين في عصره، صنّف كتاب "تلقيح العين" أثنى عليه العلماء، فقال عنه الحُمَيديّ: "لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً" . توفي في المريّة سنة ٤٣٣هـ . انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ٢٨٣/١ ، المغرب في حلى المغرب: ١٦٦/١، بغية الوعاة: ٤٧٨/١ .

(٣) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٢ .

القسم الثالث من الرّسالة:

يُعَدُّ هذا القسم أقصر أجزاء الرّسالة، وأبعدها عن التأنق الأسلوبي، وأقربها إلى التركيز المعنوي، وتكاد تستغرق هذا القسم فكرة واحدة تتمثل في إجراء مقارنة بين " أعلام علماء الأندلس وقرنائهم من أعلام علماء المشرق كل في ميدانه، مع مَيْلٍ مُقَنَّعٍ يكشفه القاريء اللبيب، واتجاهٍ غيرِ سافرٍ إلى تفضيل علماء الأندلس وأدبائه على نظرائهم من المشارقة"(١).

وإذا كنا رأينا في القسم الثاني مقارنات بين أهل الأندلس و أهل المشرق في مناحي العلوم والمعارف المختلفة توحي بمماثلة الأندلسيين لأهل المشرق؛ فإن ابن حزم في هذا القسم تَقَدَّم خطوة أخرى، يمكن أن نستشعرها - دون تصريح منه - ألا وهي تفوق أهل الأندلس حتى على المشارقة، وسبقهم لهم .

وتأسيساً لهذه المقارنة وبالتالي التفضيل الخفي جعل مطلع هذا القسم بياناً لفضيلة إقليم الأندلس، الذي لايقارن إلا ببلاد العراق؛ مهاجر كثير من العلماء، ومستقر الخلافة في زمنه، لذا فالأندلس - وهي أحد الأقاليم الإسلامية النائية - لا يَعْدِلُها إقليم آخر من الأقاليم، حتى تلك الأقاليم القريبة من مركز العالم الإسلامي، يتساوى في ذلك بلاد العرب وغيرها؛ أو بحسب قوله: " وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء، فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إنْ طُلِبَ مِثْلُها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها "(٢) .

ويبدو أن تميز البيئة الأدبية في الأندلس فرض نفسه على ابن حزم، فبدأ - هذا القسم - بالمفاخرة بأحد شعرائها المتقدمين،

---

(١) الأدب الأندلسي؛ موضوعاته وفنونه، د.مصطفى الشكعة:٦١٩ .
(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٧ .

وعده أحد الشعراء الذين غمطوا حقهم، وإن كان لايقارن إلا بكبار شعراء المشرق المعاصرين له؛ فقال: " ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جَعْوَنَة ابن الصِّمَّة الكلابيّ(١) في الشعر، لم نُباهِ به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أُنصِفَ لاستُشهِدَ بشعره، فهو جارٍ على مذهب الأوائل لاعلى طريقة المحدثين "(٢) .

ويحق للمرء أن يتساءل عن مدى مصداقية هذا الرأي الذي أصدره ابن حزم، حيث جعل من أبي الأجرب الكلابي في درجة جرير والفرزدق، وهما من هما في الشعر العربي، فهل كان ابن حزم مدفوعاً بعصبيته للأندلس عندما أصدر هذا الحكم ؟!

إنَّ ما وصلنا من شعر أبي الأجرب لايتعدّى أبياتاً يسيرة لايمكن من خلالها الوصول إلى حكم جازم عن مدى البراعة الشعرية لهذه الشخصية، فلعل ابن حزم وقف - في عصره - على قدر كبير من شعره جعله يُصدر هذا الحكم عليه، ومع ذلك يستشعر المطالع لهذا الرأي وأمثاله(٣) - في هذا القسم من الرّسالة - قدراً كبيراً من تعاطف ابن حزم مع بيئته الأندلسية، ومع المتميزين من رجالها،

---

(١) اشتُهِرَ بهجاء الصُّمَيل بن حاتم زعيم القيسيّة في عصره، ثمّ بمديحه له،وكان فارساً شجاعاً، يُدْعى بعنترة الأندلس، توفي في سجن عبد الرحمن الداخل سنة ١٤٢هـ. انظر عنه: جذوة المقتبس:١/٢٩٣ ، بغية الملتمس:٢٦١، المغرب في حلى المغرب:١/ ١٣١، ١٣٢ .

(٢) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٧ .

(٣) مِنْ مثل قوله مقارناً بين مُحدّثي الأندلس والمشرق:" وإذا سَمَّينا بَقِيَّ بن مُخَلِّد لم نُسابق به إلاّ محمد بن إسماعيل البخاريّ، ومسلم بن الحجاج النّيسابوريّ .." . رسائل ابن حزم: ١٨٢/٢ .
فبقي بن مخلد -رحمه الله- مع جلال قدره في علم الحديث؛ إلا أنّه لايكاد يُقارن بأهل السُّنن عند أهل الاختصاص، فضلاً أن يُقارن بصاحبي الصّحيحين؛ لكن ابن حزم - رحمه الله- لم يَخْلُ رأيُه هذا من أثر العصبيّة البلدانيّة .

بحيث لا يستطيع القول بخلوص بعض أحكامه من أثر العصبية، أو لعله يقبله عاداً ذلك وجهة نظرٍ خاصّة انتهى إليها رأيه رحمه الله .

ثم استمر في سرد عددٍ من أعلام الأندلسيين ومكافئيهم من المشارقة - بحسب رأيه - في عدد من فنون المعرفة؛ حديثاً وفقهاً ولغة، وهو في ذلك كله لايعلل لأحكامه أو يدلل عليها، بل يكتفي بذكر أسماء الأعلام فحسب .

وختم مقارناته هذه بعودة ثانية لذكر الأدباء المتأخرين؛ وكأنّ وهج الحياة الأدبية كان المظهر الأبرز في شخصية الأندلس الثقافية، فناسب أن يكون ختاماً لهذه المقارنات، وبالتالي ختاماً لهذا القسم الأخير من الرّسالة ؛ ففي مجال الإبداع الشعري فاخر بشاعر يعد - بحق - من أبرز شعراء الأندلس؛ ألاوهو ابن دَرّاج القَسْطَلّيّ(١)، فجعله في مصاف فحول الشعراء المشارقة، فرأى بأنّه لو لم يكن لأهل الأندلس غيره لكفاهم تميزاً وإبداعاً، فكيف وساحة الشعر الأندلسي لم تخلُ من المبدعين الذين لايقلّون قُدرةً وإبداعاً عن أقرانهم شعراء المشرق؛ يقول ابن حزم في ذلك: " ولو لم يكن لنا من فحولِ الشعراءِ إلا أحمد بن درّاج القَسْطَلّيّ لما تأخَّرَ عن شأوِ بشار بن بُرْد وحبيب والمتنبي فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب(٢) ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان(١)، وأغلب ابن

---

(١) هو أبو عمر أحمد بن محمّد بن العاصي بن دَرّاج، من أسرةٍ مشهورةٍ في بلده، فكانت تُسمّى قسطلّةُ دَرّاج نِسبةً لجدِّه، كان شاعراً مُبرِّزاً؛ حتّى قال عنه الثعالبيُّ :" كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام" ، جَلَّ قدْرُهُ عند المنصور بن أبي عامر، فكانت له فيه أمداح كثيرة . توفي سنة ٤٢١هـ . انظر عنه: الذّخيرة: ١/١/٥٩-١٠٢ ، جذوة المقتبس: ١/١٧٧-١٨١ ، بغية الملتمس: ١٥٨-١٦١ .

(٢) هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر، الحاجب المعروف بالمُصْحَفِيّ، وزير أديب، أصله من البربر، كان وزيراً للحكم=

شعيب(٢) ، ومحمد بن مطرف ابن شُخَيص (٣) ، وأحمد بن فرج(٤)، وعبد الملك بن سعيد(٥)، وكل هؤلاء فَحَلٌ يُهَابُ جانبه، وحِصانٌ ممسوحُ الغُرَّة "(٦) .

=المستنصر ثم لمّا آلت الخلافة إلى هشام المؤيّد استطاع المنصور بن أبي عامر اقصاءه ثمّ سَجْنَه، فاستعطفه المُصْحَفِيُّ بشعرٍ ونثرٍ كثير فقتله المنصور ولم يقبل منه؛ وكان مقتله سنة ٣٧٢هـ . انظر عنه: جذوة المقتبس: ٢٨٩/١ ، مطمح الأنفس: ١٥٣-١٦٦، الحلة السّيَراء: ٢٥٧/١-٢٦٧ .

(١) أديب شاعر، من شعراء القرن الرابع الهجري، ذكر الحميديّ بأنّ أحمد بن فرج الجيّانيّ أورد له في كتابه "الحدائق" أشعاراً .= =انظر عنه:جذوة المقتبس: ٢٠٨/١،٢٠٧،بغية الملتمس:١٩٠ .

(٢) هو أغلب بن شعيب الجيّانيّ، شاعر مقدّم في عصره، سكن قرطبة، كان من شعراء عبدالرحمن الناصر ومن بعده، لم تذكر المصادر تفاصيل سيرته . انظر عنه: جذوة المقتبس: ٢٧١/١ ، بغية الملتمس: ٢٤٢ ، المغرب في حلى المغرب: ٥٩/٢ .

(٣) ينتمي إلىبيت رفيع بقرطبة،كان من أهل الأدب المشهورين،ومن أعيان الشعراء المتقدمين، اشتُهر أيام الحكم المستنصر، وشهد عهد المنصور بن أبىعامر وعهد ابنه المظفر وشاركهم مجالسهم، دعاه ابن حيّان بسابق حَلْبَة الشعراء، ذكر الحميديّ بأنه قال على لسان رجل يعرف بأبي الغوث أشعاراً مشهورةً في أنواع الهزل ، أغناه بها بعد فقره، ورفعه بعد خمول، توفي قبل الأربعمائة ولم تحدد المصادر سنة وفاته. انظر عنه: المقتبس (تحقيق د.الحجي) : ١٣٧، وجذوة المقتبس: ١/ ١٤٩، ١٥٠ ، بغية الملتمس: ١٢٩ .

(٤) هو صاحب كتاب الحدائق ، وقد تقدّمت ترجمته .

(٥) هو عبدالملك بن سعيد المراديّ الخازن، رئيس أديب شاعر، كثير الشعر، موصوف بالفضل، كان من شعراء القرن الرابع الهجري، ولم تفصّل المصادر في سيرته. انظر عنه: جذوة المقتبس: ٤٥١/٢ ، بغية الملتمس: ٣٨٠ .

(٦) رسائل ابن حزم : ٢/ ١٨٧ ، ١٨٨ .

ومع ذلك لا يسع الدّارس – وهو يقرأ دعوى التكافؤ بين هؤلاء الشعراء الأندلسيين والشعراء المشارقة الثلاثة الفحول الذين ذكرهم– إلا أن يُدرك حجم التفاخر العريض الذي بلغه ابن حزم بكل المنتمين لبيئته الأندلسية،وإنْ لم يبلغوا المنزلة التي ادّعاها لهم؛فهي – بحقٍ– "مباهاة عريضة كما ترى؛ لعل ابن حزم كان أول من يُدْرِكُ حقيقتها، ولكن الموقف الذي استدعاها لم يكن يسمح بالتّواضع"(١) .

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د.إحسان عبّاس: ٤٨٥ .

رابعاً ـ تتميم ابن سعيد الأندلسي(١) لرسالة ابن حزم

من الرسائل المتأثرة برسالة أبي محمد بن حزم خاصةً، رسالة كتبها علي بن موسى بن سعيد تتميماً واستدراكاً على رسالة أبي محمد؛ وقد حاول أن يذكر شيئاً ممّا جَدَّ في مجال الثقافة الأندلسية بعد تأليف رسالة ابن حزم؛ ومع ذلك فإن هذا التذييل لم يتسم بما اتسمت به رسالة ابن حزم من محاولة الاستقصاء والشمولية ولذا نجد عمل ابن سعيد لايزيد على ست صفحات، بينما كان تأليفه لها بعد رسالة ابن حزم بما يزيد على قرنين من الزّمان، وقد جَدَّ في هذه الفترة أعداد كبيرة من العلماء والأدباء والمؤلفين، بل تعد هذه الفترة أزهى عصور الأندلس حضارةً وعلماً .

أما العلوم والمعارف التي تعرض لها فهي؛ القرآن والحديث وأصول الدّين والتاريخ والأدب والنحو والموسيقى والطب والفلسفة والتنجيم

ويتفاوت عرض الكاتب لهذه الفنون طولاً وقصراً؛ فعندما تعرض لعلوم القرآن لم يذكر سوى ثلاثة تفاسير فحسب، ذِكْرُ اثنين منهما يُعَدُّ استدراكاً على ابن حزم فهما تفسيران لأحد معاصريه، وأما الثالث فمما جَدَّ بعده؛ يقول علي بن موسى بن سعيد: " وأمّا القرآن فمن أَجَلِّ ما صُنِّفَ في تفسيره كتاب: الهداية إلى بلوغ النهاية، في

---

(١) هو علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد، من أسرة مشهورة في الأندلس ينتهي نسبها إلى عمار بن ياسر -رضي الله عنه- ، وإليهم تنسب القلعة المشهورة هناك بقلعة بني سعيد، ولد عليّ سنة ٦١٠هـ وتنقل في نواحي الأندلس ثم ارتحل مع والده إلى برّ العدوة فبلاد المشرق، كان شاعراً أديباً، له عدد من المؤلفات المشهورة، توفي سنة ٦٨٥هـ . انظر عنه: المغرب في حلى المغرب: ٢/١٧٢-١٧٩، الإحاطة: ٤/١٥٢-١٥٨، وابن سعيد الأندلسي"حياته وتراثه الفكري والأدبي" ، لمحسن حامد العيادي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ١٩٧٢م .

نحو عشرة أسفار، صنّفه العالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي(١)، وله كتاب: تفسير إعراب القرآن(٢)، وعَدَّ ابنُ غالب(٣) في كتاب: فرحة الأنفس تآليفَ مكي المذكور، فبلغ بها ٧٧ تأليفاً وكانت وفاته سنة ٤٣٧هـ، ولأبي محمد بن عطيّة الغرناطي(٤) في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق(٥) وصاحبه من فضلاء المائة السادسة "(٦) .

بينما نجد ابن سعيد يسهب في حديثه عن علم التاريخ حتى يكاد يبلغ هذا الجانب نصف الرّسالة، وفيها يبدو أكثر إسهاباً وتفصيلاً، ولعل مرد ذلك كون ابن سعيد ميالاً لهذا اللون من التأليف، ولذا نجده يباهي بنفسه وأسرته ويذكر تفردها بنوع

---

(١) سكن قرطبة وأصله من القيروان، ولد سنة ٣٥٥هـ، رحل إلى المشرق والتقى بمشاهير علماء القراءات واللغة، كان من أهل التبحّر في علوم القرآن والعربية، كثير التأليف في علوم القرآن، توفي سنة ٤٣٧هـ .
انظر عنه الصلة: ٦٣٢/٢، بغية الملتمس: ٤٦٩ .

(٢) لعله يعني كتاب"مشكل إعراب القرآن" وهو مطبوع بتحقيق الدكتور حاتم الضامن في مجلدين .

(٣) هو محمد بن أيوب بن غالب' صاحب كتاب "فرحة الأنفس"، نقل عنه ابن سعيد في "المغرب"، والمقريّ في "النّفح" كثيراً، بقيت قطعة من كتابه نشرها الدكتور لطفي عبدالبديع في مجلة معهد المخطوطات: ٢٧٢/١-٣١٠ .
انظر: نفح الطيب: ١٢٥/١ (الحاشية) .

(٤) القاضي الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، كان واسع المعرفة ذا تمكن من الأدب، أكثر الناس الأخذ عنه، توفي سنة ٥٤٢هـ. انظر عنه: قلائد العقيان:٦٥٥/٣-٦٧٣ ، الصلة: ٣٨٦/٢ ، المرقبة العليا للتباهي: ١٠٩ .

(٥) هو تفسيره الموسوم بـ"المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" وهو مطبوع .

(٦) نفح الطيب: ٣ / ١٧٩ .

من التأليف لم يسبقوا إليه؛ فيقول: "وكتاب أبي محمد عبدالله بن إبراهيم الحجاري(١) المسمّى بالمُسهِب في فضائل المغرب، صنّفه بعد الذخيرة والقلائد من أوّل ماعُمِرَت الأندلس إلى عصره، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى نكر البلاد وخواصها مما يختصّ بعلم الجغرافيا، وخلطه بالتاريخ ... ولذلك فَضَّلَهُ المُصَنِّفُ له عبد الملك بن سعيد(٢)، وذيّل على ذلك ابناه أحمد(٣) ومحمد(٤)

---

(١) نسبة إلى مدينة وادي الحجارة بالقرب من طليطلة، كان شاعراً ناثراً، وفد على عبدالملك بن سعيد في قلعته ومدحه، وله صنّف كتاب "المُسْهِب في فضائل المغرب" الذي أصبح أصلا بني عليه تأليف كتاب "المغرب في حلى المغرب" ،لم تذكر المصادر تاريخ وفاته ، انظر عنه:المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) هو أبومروان عبدالملك بن سعيد بن خلف بن سعيد، ولد سنة ٤٩٦هـ، كان أميراً على قلعة بني سعيد زمن المرابطين وصدر دولة الموحدين،كان محبّاً للأدب مشاركاً فيه،وفد عليه الحجاري وصنف له كتاب "المسهب"، ثم إنه هذّبه وزاد عليه ثم عدد من عقبه من بعده، ليخرج الكتاب -بعد ذلك- باسم "المغرب في حلى المغرب"،توفي سنة ٥٦٢ .انظر عنه: المغرب في حلى المغرب: ٢/١٦٢،١٦١،ابن سعيد الأندلسي"حياته وتراثه الفكري والأدبي".

(٣) هو أبوجعفر أحمد بن عبدالملك بن سعيد، كان شاعراً مميزاً، استوزره عثمان بن عبدالمؤمن الموحدي أمير غرناطة، واشترك معه في هوى حفصة الركونيّة الشاعرة، نُقل للأمير عنه مايكرهه من القول، فأوقع به وقتله سنة ٥٥٩هـ .
انظر عنه: المغرب في حلى المغرب:٢/١٦٤،رايات المبرزين:١٧٠، ١٧١، الإحاطة:١/٢١٤-٢٢٠ .

(٤) هو أبوعبدالله محمد بن عبدالمك بن سعيد، جدّ علي بن موسى كاتب الرسالة، كان له منزلة عند ولاة المرابطين ثم ولي في زمن الموحين أعمال إشبيلية وغرناطة وسلا، وعلى يده بنى الجامع الأعظم بإشبيلية،وكان مُمَدَّحا للشعراء، مولده سنة ٥١٤هـ وتوفي سنة ٥٨٩هـ . انظر عنه:
المغرب في حلى المغرب: ٢/١٦٣،١٦٢، ابن سعيد الأندلسي"حياته وتراثه الفكري والأدبي" :٦٢ .

ثم موسى بن محمد(١) ثم علي بن موسى - كاتب هذه النسخة - ... فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥هـ "(٢) .

والمتتبّع لبقيّة هذا التّتميم لابن سعيد يجد أنّه لايخرج عن كونه تعديداً لأسماء بعض المؤلّفات والمؤلّفين مع بعض المعلومات اليسيرة أحياناً عن المؤلّف كذكر سنة وفاته، أو مقارنته بمؤلّف آخر، أو ذكر عدد كتبه .

ولذا فإن ممّا يُسجّل على ابن سعيد هذا الاختصار الذي يَصِلُ إلى درجة الإخلال بالغاية التي لأجلها كُتبت الرّسالة الأمّ؛ وهي إثبات براعة الأندلسيين الفكرية، وتسجيل مفاخرهم العلميّة، والحقّ بأنّ ابن سعيد كان مجال القول أمامه متّسعاً، حيث عاش في الفترة التي تقع مابين عصر ابن حزم وعصره كبار العلماء والمفكّرين والأدباء والفلاسفة الأندلسيين(٣) ؛ إلاّ أنّ ابن سعيد اكتفى بذكر أسماء هؤلاء

---

(١) هو والد مؤلف هذه الرسالة، كان مولده سنة ٥٧٣هـ، كان شغوفاً بالتاريخ عالماً به، جال كثيراً، توفي في الاسكندرية سنة ٦٤٠هـ . انظر عنه: المغرب في حلى المغرب: ٢/١٧٠، ١٧١، نفح الطيب: ٢/ ٣٣٣، ٣٣٤ .

(٢) نفح الطيب : ٣/ ١٨٣ .

(٣) من بين مشاهير أعلام الأندلسيين الذين ذكرهم على عُجالة في هذا التّتميم - وكان باستطاعته أن يتحدّث عما أضافوه في التّخصُّصات العلميّة المختلفة - كلٌّ من:
أبوبكر بن العربي، مكي بن أبي طالب، ابن عطيّة الغرناطي، أبوعمرو الدّاني، أبوالوليد بن رُشد الجدّ، أبوالوليد الباجي، أبوعبدالله الحُميدي، ابن عبد البر، أبوالوليد الفرضي، ابن بشكوال، ابن حيّان الأندلسي، أبوبكر الزّبيدي، ابن بسّام الشنتريني، الفتح بن خاقان، أبوعبدالله بن أبي الخصال، أبوعُبيد البكري، ابن السّيّد البطليوسي، الأعلم الشّنتمري، ابن خروف، ابن عصفور، ابن الطّراوة، أبوعلي الشّلوبين، أبوالوليد بن رُشد الحفيد،أبوالعلاء بن زُهر،ابن البيطار، ابن باجة .

الأعلام على عجل شديد، مكتفياً بذكر الجانب الذي برز فيه كل واحد منهم دون تفصيل أو تعداد لكل ماألّفه ؛ لذا فإن تتميم ابن سعيد يعدّ – بحقّ – أضعف الرّسائل التي تطرّقت لموضوع التّنافس بين المغاربة والأندلسيين .

خامساً ـ رسالة أبي الوليد الشّقُنديّ(١)

رسالة أبي الوليد الشّقُنديّ من الرّسائل ذات الصّيت البعيد في هذا الغرض؛ فهي تُعَدُّ – بحقٍ – " قطعةً أدبيّةً من النّثر الفني فضلاً عن كونها سجلاً أدبياً واجتماعياً وتاريخياً وعلمياً لبلاد الأندلس "(٢) تميزت بالحماس الشديد وباستمرارية التعاطف مع الموضوع من أول الرّسالة إلى آخرها .

وفضلاً عن الطول الواضح الذي تميّزت به(٣) فإنها تُعَدُّ " أغنى وأمتع وآدب وأوفر ثروة بالروح الأدبية من رسالة ابن حزم ... (والشّقُنديّ) في ذلك كله يصدر عن روح أدبية أصيلة وينطلق عن سياق عذب التسلسل دقّاق المعاني "(٤) .

---

(١) هو إسماعيل بن محمد الشّقُنديّ، ينسب إلى قرية شَقُندة وهي قرية مطلّة على نهر قرطبة وقريبة منها، قال عنه ابن سعيد بأنه كان صديقاً لوالده، وكان جامعاً بين العلوم القديمة والحديثة، ولي قضاء بَيّاسة وقضاء لُورقة، توفي بإشبيلية سنة ٦٢٩هـ . انظر عنه: اختصار القدح المعلّى: ١٣٨، ١٣٩، والمغرب في حلى المغرب: ١/٢١٨، ٢١٩، ونفح الطيب: ٣/٢٢٢-٢٢٤ .

(٢) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ٦٢٠ .

(٣) انظر كامل الرّسالة في نفح الطيب : ٣/١٨٧-٢٢٢ .

(٤) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ٦٢١ .

سبب تأليفها:

أمّا عن سبب كتابته لها فيروي علي بن موسى بن سعيد عن والده قصةً مفادها؛ أنّ نقاشاً دار بين الشَّقُنديّ وبين ابن المعلّم الطَّنجيّ(١) في مجلس والي سبتة – وكان أحد أصهار الموحدين – حول التفضيل بين البَرَّين ، فقال الشَّقُنديّ –بعد أن احتدّ النقاش بينه وبين ابن المُعلّم الطَّنجيّ–: " لولا الأندلس لم يذكر بَرُّ العُدْوَة، ولاسارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ماتعلم، فقال الأمير أبو يحيى: أتريد أنْ تقولَ كون أهل بَرّنا عَرَباً وأهل بَرّكم بربراً(٢)؟ فقال: حاش لله ! فقال الأمير: والله ما أردتَ غيرَ هذا، فظهر في وجهه أنّه أرادَ ذلك، فقال ابن المُعَلّم : أتقول هذا وما المُلْكُ والفَضْلُ إلا من بَرِّ العُدْوة؟ فقال الأميرُ: الرّأيُ عندي أنْ يعملَ كلُّ واحد منكما رسالةً في تفضيل بَرّه، فالكلام هنا يطولُ ويمرُّ ضياعاً، وأرجّو إذا أخليتما له فِكْرَكُما يَصدرُ عنكما مايَحْسُنُ تخليده، ففعلا ذلك"(٣).

ومع أن الأندلسيين – والشَّقُنديّ أحدهم – كانوا يستشعرون في هذه الفترة مدى ضعفهم السياسي حيث أصبحوا زمن الموحدين – كما هو الحال في عهد المرابطين من قبل – ولايةً تابعةً لدولةٍ كبرى مقرّها العُدوة المغربية إلا أنّه بالمقابل حافظوا على المستوى العالي من تَحَضُّرِهم وتميُّزِهم الفكري، فبقدر تَبَيّعة الأندلس السياسية في هذه الفترة المتأخرة ظلّت – وبأنفة الزّعيم الرُّوحي – تطبع المغرب بطابع ثقافتها وبعبقريتها(٤) .

---

(١) لم أعثر له على ترجمة؛ وقال الدكتور عمر فرّوخ–عند ذكره لأجزاء من رسالة الشَّقُنديّ–:" لم أهتد إلى صاحب هذا الاسم إلا في هذا النّص" . تاريخ الأدب العربي: ٦٦٨/٥ .

(٢) في نفح الطيب "بربر" ولعل ذلك خطأ مطبعيّ .

(٣) نفح الطّيب : ١٨٦/٣ .

(٤) انظر حضارة العرب في الأندلس؛ ليفي بروفنسال : ٣٩ .

مطلع الرّسالة:

ويمكن استقراء كثيرٍ من مَيزات هذه الرّسالة وخصائصها الأسلوبيّة والمعنويّة بدءاً بمطلعها؛ حيث استطاع الكاتب الجمع بين التقديم وذكر سبب كتابته لرسالته بعبارات تنطق بغايته، وتُبِينُ عن هدفه، كما تكشف عن المنهج الذي ارتضاه لنفسه وهو مواجهة هذا المدَّعي ورفع شأن بلاد الأندلس ثقافةً وحضارةً دون مجاملة أو مواربة، كلّ ذلك بلغةٍ يغلب عليها الانفعال والحماس الشديدين؛ وذلك حيث قال: " الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلم ملء فيه، ويطنب مايشاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه، إذ لايقال للنهار: يا مظلم، ولا لوجه النعيم ياقبيح

وقد وجدت مكانّ القولِ ذا سَعَةٍ ∴ فإنْ وجدتُ لساناً قائلاً فقل(١)

أحمده أن جعلني ممن أنشأته، وحباني بأن كنت ممن أظهرته، فامتد في الفخر باعي وأعانني على الفضائل كرم طباعي ... أما بعد؛ فإنّه حَرَّك منّي ساكناً، وملأ منّي فارغاً ... منازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع، ويأتي بما لاتقبله النّواظرُ والأسماع، إذ مَنْ رأى ومن سمع لايجوز عنده ذلك، ولايُضله مَنْ تاهَ في المسالك"(٢)، ولهجة الزُّهُوّ تتبدّى واضحة، و" تلازم من البداية حتى النّهاية هذا الدِّفاع الطّويل، والذي هو – في الوقت نفسه– هجوم على الخصم "(٣) .

وتتميّز رسالة الشَّقُنديّ عن رسالة ابن حزم في كونها تبين فضل الأندلس وتقف بشيء من النّقد اللاذع والسُّخرية البالغة للعُدْوَة المغربية، وهذا مالم نجده في الرّدود على رسالة ابن الرَّبيب من قبل،

(١) البيت لأبي الطّيب المتنبي، ديوانه بشرح الواحدي: ٤٩١ .
(٢) نفح الطيب : ٣ / ١٨٧ .
(٣) حضارة العرب في الأندلس؛ ليفي بروفنسال : ٣٨ .

حيث اكتفوا بتعديد فضائل بلادهم دون التّعرّض للطرف الآخر، بينما نرى الشّقُنديّ في مقدمة رسالته يَعقِدُ مقارنةً بين المنطقتين، ويُبكّتُ ابنَ المعلّم على محاولته تفضيل بلاد المغرب، بل يتّهمه في عقله وفهمه؛ فيقول: " رامَ أنْ يُفَضّلَ بَرَّ العُدْوَة على بَرِّ الأندلس فَرامَ أنْ يُفَضّلَ على اليمين اليسار، ويقول: الليل أضوأ من النهار، فيا عجباً كيف قابل العوالي بالزّجاج[1]، وصادم الصّفاةَ بالزُّجاج[2]، فيا مَنْ نَفَخَ في غير ضَرَم، ورام صيد البُزاة بالرَّخَم، كيف تتكثّر بماجعله الله قليلا؟! وتتعزّز بما حكم الله أن يكون ذليلاً ؟ ماهذه المباهته التي لاتجوز؟ وكيف تُبدي أمام الفتاة العجوز؟ سَل العيونَ إلى وجه من تميل؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغي؟ ... أين عَزَبَ عقلُك ؟ وكيف نَكَصَ على عقبه فهمُك ولُبُّك ؟ أبلغت العصبيّةُ من قلبك أن تَطْمِسَ نُوريْ بَصَرك ولُبّك ؟ "(٣) .

القسم الأوّل من الرّسالة:

وبعد هذه المقدّمة التي رسم من خلالها منهجه، وكشف عن رأيه انتقل إلى القسم الأول من الرّسالة وفيه الفخر بملوك الأندلس وزعمائها وعلمائها، دون أن يُخْلِي ذلك عن شيء من النّقد لبعض زعامات المغرب السابقة على عصر الموحدين .

أمّا الدّاعي لتقديم الفخر بالملوك فهو الرّدّ على ابن المعلّم في دعواه التي أطلقها في مجلس والي سبتة، حيث قال الشّقُنديّ رادّاً عليه: " أمّا قولك: الملوك منّا، فقد كان الملوك منّا أيضاً، وما نحن إلا كما قال الشاعر(٤):

---

(١) الزّج: الحديدة التي تركّب في أسفل الرّمح، والعوالي: أعالي الرّمح وهي التي يكون بها الطّعن .
(٢) الصّفاة: الحجر الصّلْد الضّخم .
(٣) نفح الطيب: ٣/ ١٨٧، ١٨٨ .
(٤) البيت للنّمر بن تولب، انظر مجموع شعره ضمن شعراء إسلاميون: ٣٤٧ .

فَيَـــومٌ عَلَينَـــا وَيَـــومٌ لَنَـــا ∴ وَيَـــومٌ نُسَـــاءُ وَيَـــومٌ نُسَـــر

إنْ كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن – أدامها الله تعالى – فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول مشرقيهم(١):

وإنَّـــي مِـــنْ قَـــومٍ كَـــرامٍ أعِـــزَّةٍ ∴ لأقدامِهِـــم صِيغَـــتْ رؤوسُ المنابِـــرِ

خلائِـــفُ في الإسلامِ في الشَّرقِ قـادةٌ ∴ بهِـــم وإليـــهم فخـــرُ كـــلِّ مُفاخِـــرِ

ويقول مغربيهم (٢):

ألسنا بنـــي مـــروانَ كيـفَ تَبَـدَّلتْ ∴ بنا الحـالُ أو دارتْ علـينا الدَّوائـــرُ

إذا وُلِـــدَ المولـــودُ مِنَّـــا تَهَلَّلَـــتْ ∴ لـهُ الأرضُ واهتَـــزَّتْ إليـهِ المنابـــرُ

وقد نشأ في مُدَّتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق، وصار أثبتَ في صحائف الأيام، من الأطواق في أعناقِ الحَمام "(٣) ، والكاتب لايقف في الفخر بملوك بلده عند حَدٍّ؛ حتى ملوك الطوائف فاخر بهم،حيث كان-كما يقول-:"في تَفَرُّقهم اجتماع على النِّعم لفضلاء العباد، إذ نفعوا سوق العلوم،وتباروا على المنثور والمنظوم، فما كان أعظمَ مباهاتهم إلا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مُخْتَصٌّ بالملك الفلاني، وليس منهم إلاّ مَنْ بَذَلَ وُسعَه في المكارم، ونَبَّهَت الأمداحُ من مآثره ماليس طُولَ الدَّهرِ بنائم"(٤) .

وبعد هذا الفخر بملوك الأندلس وَجَّهَ الكاتب خطابه لابن المعلّم قائلاً: " وبالله إلاّ سَمَّيتَ لي بمن تفخرون قبل هذه الدّعوة

---

(١) البيتان للعُتْبيّ؛ البيان والتبيين: ٢/ ١٨٢، ١٨٣ .
(٢) البيتان من شعر محمد بن عبدالملك حفيد عبدالرحمن الناصر، الحلة السيراء: ٢٠٩/١ .
(٣) نفح الطيب : ١٨٨/٣ .
(٤) نفح الطيب: ١٩٠/٣ .

المَهديّة، أبِسقوت الحاجب؟(١) أم بصالح البرغواطي؟(٢) أم بيوسف ابن تاشفين؟(٣) الذي لولا توسط ابن عبّاد(٤) لشعراء الأندلس في مدحه .

---

(١) ويكتب أيضا"سكوت" ، أصله من قبيلة برغواطة البربرية، أسِرَ في بعض الحروب، ثم أصبح عبداً لشيخ من قبيلة غمارة البربرية، ثم صار لعلي بن حمود الإدريسي، فولاّه طنجة وسبتة، وبعد زوال دولة الحموديين استقلّ سقوت بحكم المدينتين إلى أن هُزِمَ على يد يوسف بن تاشفين -زعيم المرابطين- وقُتِل سنة ٤٧٠هـ . انظر عنه: الأنيس المطرب: ١٤٠-١٤٣ .

(٢) هو صالح بن طريف البرغواطي، متنبئ من قبيلة برغواطة البربرية، كان في بداية أمره من أهل الخير ثم ادّعى النّبوّة سنة ١٢٧هـ، وشرّع ديناً فرض فيه على أتباعه عشر صلوات، وصيام رجب بدلاً من رمضان، والسارق يُقتل، وللرّجل أن يتزوّج ماشاء، وأنشأ قُرآناً في ثمانين سورة، وقد كثر أتباعه ودامت دولته سبعاً وأربعين سنة، ثم خرج إلى المشرق زاعما بأنه سيعود بعد حين، وبقي أبناؤه يتوارثون ضلالته إلى أواسط القرن الخامس الهجري حيث قضى عليهم المرابطون . انظر عنه: الأنيس المطرب: ١٣٠، ١٣١، الاستقصا: ١/١١٤-١١٦

(٣) هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت اللمتوني نسبة لقبيلة (لمتونة) البربرية ولد حول سنة (٤١٠هـ) يعد أول أمراء المرابطين، كان بطلاً كريماً زاهداً ؛ لباسه الصوف وطعامه الشعير ولحم الإبل، يأكل من عمل يده، وهو مؤسس مدينة مراكش المغربية، أثر عنه أنه كان يشارك الفعلة في البناء وهو صائم تقرباً إلى الله وطلباً للمثوبة منه سبحانه، توفي ـ رحمه الله -سنة ٥٠٠هـ . انظر أخباره في: الحلل الموشية: ٢٤، ٢٥، الاستقصا: ٢/٢٢ ـ ٦٠ تراجم إسلامية، لمحمد عنان: ٢٢٥ـ٢٣٤، دولة المرابطين(عهد يوسف بن تاشفين) د.سعدون عباس نصر الله: ٣٣ ـ ٥٣ .

(٤) هو المعتمد على الله أبوالقاسم محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل اللّخميّ، وُلِدَ بباجة سنة ٤٣١هـ، وولي مملكة إشبيلية بعد أبيه سنة ٤٦١هـ، كان أعظم ملوك الطوائف بالأندلس،=

ماأجروا له ذكراً، ولا رفعوا لمُلْكه قدراً "(١) .

وقد استغل الشَّقُنديّ جانب عداء الموحدين للمرابطين ليُخَلِّص نفسه من المأزق الذي وضع نفسه فيه وهو ذم ملوك المغرب وانتقاصهم أمام ملوك بلده، فأقذع في ذم المرابطين وخاصةً أميرهم يوسف بن تاشفين واصماً له بالجهل وقلة الفهم وذلك ليثبت ولاءه للموحدين؛ فقال مفصلاً لما سبق: فقد سأل المعتمد يوسف بن تاشفين بعدما أنشده الشعراء قائلاً: " أيعلم أمير المسلمين ماقالوه ؟ قال: لاأعلم، ولكنهم يطلبون الخبز، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه، كتب له المعتمد رسالة فيها(٢):

بِنْتُم وَبِنّا فَما إبتَلّت جَوانِحُنا ∴ شَوقاً إلَيكُم وَلا جَفّت مَآقينا

حالَت لِفَقدِكُمُ أيّامُنا فَغَدَت ∴ سوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَيالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارئ: يطلب منا جواري سوداً وبيضاً، قال: لايامولانا، ما أراد إلا أنّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً .. فعاد ببعده ليلاً .. فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق:

ولاتُنكِرَن مهما رأيتَ مُقَدَّماً ∴ على حُمُرٍ بِغالاً قَدَّم تناسبُ

=كما كان أديباً شاعراً، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، خلعه المرابطون سنة ٤٨٤هـ، ثم سجن في مدينة أغمات المغربية إلى أن مات سنة ٤٨٨هـ . انظر عنه: المعجب: ١٠١-١٦١ ، الذخيرة: ٢/١/ ١٣-٨٢ ،
تراجم إسلامية: ١٨٦-١٩٩ .

(١) نفح الطيب: ٣/١٩١ .

(٢) ديوان ابن زيدون ورسائله: ١٤٢، ١٤٣ .

فاسكتوا فلولا هذه الدولة، لما كان لكم عل الناس صولة "(١) .

ولست – هنا – بصدد التّحقّق من مدى صدق مايرويه الشّقُنديّ عن يوسف بن تاشفين، ولكن يكفي أن نعلم أن هذه الرّسالة أُعدّت بسبب مناظرة بين يدي أمير موحدي وبطلب منه، مما فرض على الكاتب مراعاة الموقف ومجاملة الأمير، وهذا مايكشف عنه قوله – وبحكم واسع جداً – :

" لولا هذه الدولة لما كان لكم على الناس صولة " . ويبدو لي أن الشّقُنديّ لو أخلى رسالته من معرّة المجاملة بسبب ذمّه المرابطين لأمكن أن نعدّ رسالته هذه من أدب المواقف لما اتسمت به من جرأة وإبراز للرأي في موقف يلجأ إليه الكثيرون إلى المجاملة والمداراة .

ثم يعقب الفخر بالملوك الفخر بالعلماء، وهو لايخرج في ذلك عما رأيناه من قبل لدى ابن حزم وابن سعيد من تعداد لأسماء العلماء، وذكر لأبرز مؤلفاتهم، وإن كان الشّقُنديّ لم يتوافر على ذلك بمحاولة الاستقصاء فكان حديثه في هذا الجانب سريعاً ومختصرا (٢) .

أما القسم الثاني من الرّسالة فقد جعله الكاتب فخراً بالأدباء الأندلسيين، وبالشعراء منهم خاصة، مركزاً على الموهوبين منهم، يستشهد بالعذب من أشعارهم في الأغراض المختلفة من مدح ووصف وغزل وفخر ولهو وزهد، ويسوق الأبكار من معانيهم التي ربما لم يفضضها قبلهم أدباء المشرق(٣) مزرياً على أهل عدوة المغرب أن يبلغوا شأوها .

---

(١) نفح الطيب: ٣/ ١٩٢، ١٩٣ .
(٢) انظر نفح الطيب : ٣/١٩٢، ١٩٣ .
(٣) انظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ٦٢١ .

ويعد هذا الجزء أطول أجزاء الرّسالة، وفيه يحشد عدداً كبيراً من النصوص الشعرية بشكل متلاحق على سبيل القول بسبقها، فهو يقول مثلاً: " وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله(١):

وليلٍ بسدّ النّهر أنساً قطعتُهُ ∴ بذاتِ سوارٍ مثل منعطف النّهرِ

نَضَتْ بُردَها عن غصنِ بانٍ مُنَعَّمٍ ∴ فيا حسن ماانشق الكِمامُ عن الزّهرِ

وقوله في أبيه(٢):

سيمدحُ يَهَبُ الآلاءَ مبتدئاً ∴ ويعد ذلك يلفى وهو يعتذرُ

له يدٌ كلُّ جبّارٍ يُقَبّلها ∴ لولا نداها لقلنا إنها الحجرُ

ومثل ابنه الراضي في قوله(٣):

مَرُّوا بنا أصلاً من غير ميعادِ ∴ فأوقدوا نارَ قلبي أيَّ إيقادِ

لاغروا أنْ زادَ في وجدي مُرُورُهم ∴ فرؤيةُ الماءِ تُذكي غلّةَ الصّادي

... وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمّار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ؟ وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل ؟ التي منها(٤):

أثمرتْ رُمحُكَ من رؤوس ملوكهم ∴ لمّا رأيتَ الغصنَ يُعشقُ مُثمِرا

وصَبَغتْ دِرعَكَ من دماءِ كُماتِهم ∴ لمّا رأيتَ الحُسنَ يُلبَسُ أحمرا

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ١٢ .
(٢) ديوانه: ٣٧، ٣٨ .
(٣) البيتان في المطرب من أشعار أهل المغرب: ٣٨ .
(٤) البيتان في خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس): ٢/ ٧٣ .

ومثل قول ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقَلْ – مع طولها في النسيب – أرقَّ منها، وهي التي يقول فيها(١):

كأنّنا لم نَبِتْ والوَصْلُ ثالثُنا ∴ والسَّعْدُ قد غَضَّ من أجفان واشينا

سِرَّانِ في خاطرِ الظَّلماءِ يَكتُمُنا ∴ حتّى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يُفشِينا "(٢)

والشَّقَنْديّ غالباً لايزيد في اختياره من شعر شاعر عن مقطوعة واحدة أو اثنتين على الأكثر، ولم يخرج عن ذلك إلاّ في حديثه عن ابن خفاجة حيث اختار له ثمان مقطوعات قَدَّمَ لها مُباهياً بالفنّ الذي برع فيه الشاعر بقوله: " وهل منكم من برع في أوصاف الرّياض والمياه ومايتعلّق بذلك فانتهى إلى راية السباق، وفضح كلَّ من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة... "(٣) .

ملامح نقديّة في هذا القسم من الرّسالة:

ومع أنّ هذا القسم من الرّسالة يتّسم بطابع السّرعة في المعالجة وذلك بتلاحق الاستشهادات الشعرية إلا أنّنا لانعدم في مواضيع يسيرة شيئاً من النّقد يَبُثُّهُ الكاتب في ثنايا استشهاداته؛ من ذلك حديثه عن السّرقات الشعرية؛ حيث قال على سبيل المفاخرة: " وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس(٤) :

سَمَوْتَ إليها بعدما نامَ أهلُها ∴ سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ

فاختَلَسَهُ اختلاسَ النّسيمِ لنفحةِ الأزهار، واستَلَبَهُ بِلُطْفِ استلابِ ثغرِ الشمسِ لِرُضابِ طَلِّ الأسحار، فَلَطَّفَهُ تَلْطِيفاً يمتزجُ بالأرواح ... وهو ابن شهيد في قوله(٥):

---

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله: ١٤٦ .
(٢) نفح الطيب : ٣/١٩٣، ١٩٤ .
(٣) نفح الطيب : ٣/ ٢٠٠ .
(٤) ديوان امرئ القيس: ٣١ .
(٥) الأبيات مع اختلاف في بعض الألفاظ في ديوان ابن شهيد: ١٢٠

ولَمَّا تَمَلأ مِن سُكْرِهِ ∴ ونامَ ونامَتْ عُيونُ الحَرَسْ
دَنَوْتُ إليهِ على رُقْبَةٍ ∴ دُنُوَّ رَقِيبٍ ترى ما التَمَسْ
أَدِبُّ إليهِ دَبِيبَ الكَرَى ∴ وأسْمُو إليهِ سُمُوَّ النَّفَسْ

...

وقد تناول هذا المعنى ابنُ أبي ربيعة - على عظم قدره وتَقَدُّمه - فعارض الصَّهيل بالنُّهاق، وقابل العذب بالزُّعاق، فقال وليته سكت(١):

ونفضت عني العين أقبلت مشية ∴ حُبابٍ وركني خفية القوم أزوَرُ

وأنا أقسم لو زار جملٌ محبوبةً له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الرُّكن، المُنَفِّضِ للعيون، لكنّه إنْ أساءَ هُنا فقد أحسنَ في قوله ... "(٢) .

وإذا كان نقده هنا لأحد أعلام الشعراء المشارقة، فإنّا نراه في موضع آخر يقف منتقداً لأحد أعلام الشعراء المغاربة المعاصرين له، فيقول على سبيل التَحدّي: " فبالله إلاّ ما أخبرتني: مَنْ شاعركم الذي تُقابِلُونَ به شاعراً ممَّنْ ذكرتُ ؟ لا أعرفُ لكم شاعراً أشهر ذكراً، وأضخم شعراً، من أبي العبّاس الجَرَاوي(٣)، وأولى لكم أنْ

---

(١) البيت في الكامل للمبرد: ١/ ٣٨٥ ، وفي ديوان ابن ربيعة مع اختلاف في روايته: ٦٥ .
(٢) نفح الطيب: ١٩٧/٣، ١٩٨ .
(٣) هو أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراويّ، شاعر هجّاء مقذع، من أبرز الشخصيّات الأدبيّة في دولة الموحدين، خدم بشعره الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور، صنّف كتاباً مشابهاً لحماسة أبي تمّام سمّاه"صفوة الأدب وديوان العرب"، وتسمّى -أيضاً- الحماسة المغربية، وهو مطبوع، توفي بإشبيلية سنة ٦٠٩هـ . انظر عنه: زاد المسافر: ٤٩، ١٢٨، وفيات الأعيان: ٧/ ١٣٦، ١٣٧ ، النبوغ المغربي: ١٦٩/١ .

تجحدوا فخرَه، وتنسوا ذكرَه، فقد كفاكم ماجرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة(١):

إذا كانَ أملاكُ الزّمانِ أراقِماً ∴ فإنّكَ فيهم دائمُ الدهرِ ثعبانُ

فما أقبح ماوقع (ثعبان) وما أضعف ماجاء (دائم الدهر) ، ولقد أنشدتُ أحدَ ظرفاء الأندلس هذا البيت، فقال: لا يُنْكَرُ هذا على مثل الجراوي، فسبحان من جعل نسبه ورُوحَه وشعره تتناسب في الثّقالة "(٢) .

وفي نهاية القسم الثاني من الرّسالة عاد الكاتب مرة أخرى للفخر ببعض فرسان الأندلس ورجالها، وأجد هذه الجزئية غريبة في موقعها فهي أكثر ارتباطاً بالقسم الأول منها بهذا القسم، ولعل ذلك نوع من محاولة الاستدراك لشيء تذكّره الكاتب أخيراً .

أما القسم الثالث من رسالة الشّقُنديّ ففخر بمدن الأندلس؛ ووصف لأهم ما اختصت به هذه المدن من جوانب " اجتماعية وميزات اقتصادية، وأنماط سلوك وسبل حياة، وفضائل تميز بها الناس عن غيرهم، ومزايا توافرت في بلادهم في حين لم تتوفر في بلدان أخرى"(٣). وقد ذكر في هذا الجانب تسع مدن أندلسية هي : إشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة ومالقة والمرية ومرسية وبلنسية وميورقة(٤) .

وقد بدأ الكاتب بإشبيلية فأطال الحديث عنها، وفخر بكل شيء فيها، جواً ومباني وحسن بناء، وتحضراً وطبيعيةً ومحاصيل زراعية

---

(١) ديوان الجراوي: ١٦٥ .
(٢) نفح الطيب: ٣/ ٢٠٩، ٢١٠ .
(٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ٦٣٥ .
(٤) هي ثمان مدن والتّاسعة "ميورقة" وهي أكبر ثلاث جزر تقع شرق الأندلس، وتسمى الآن بجزر البليار، وقد سقطت بيد النصارى سنة ٦٢٦هـ .انظر الروض المعطار: ٥٦٧-٥٦٩ .

بل وأخلاقاً اجتماعية؛ حيث يقول عنها: " أمّا إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، وتزيين الداخل والخارج، وتمكن التَّمَصُّر، حتّى إنّ العامّة تقول: لو طُلب لبنُ الطَّير في إشبيلية وجد . ونهرها الأعظم الذي يصعد المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفر(١):

شقّ النّسيمُ عليهِ جَيْبَ قميصِه ∴ فانسابَ مِنْ شطّيهِ يَطْلُبُ ثارَهُ
فتضاحكتْ وَرَقُ الحَمامِ بِدَوْحِها ∴ هُزْءاً فَضَمَّ مِنَ الحياءِ إزارَهُ

وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم والأنشام(٢) متصل ذلك اتصالاً لايوجد على غيره "(٣) .

وفي موضع آخر نرى الكاتب – وهو يُبَيِّنُ خصائص إشبيلية – يذكر بعضَ العادات الاجتماعية غير السَّوِيَّة، لكنّه يُوردها في معرض أسلوبي يشعر بالإطراء، وكأنّه يَعُدُّ ذلك دليلاً على عراقة إشبيلية في التَّمَدُّن وبُعْدِ أَمَدِها في الحضارة؛ فيذكر مجالس الأُنس واللهو التي تُعقَدُ على ضفاف نهرها قائلاً: " وقد سَعِدَ هذا الوادي(٤) بكونه لايخلو من مَسَرَّة، وأنّ جميع أدوات الطَّرَب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهٍ عن ذلك ولا مُنتَقِد، مالم يُؤَدِّ السُّكرُ إلى شرٍّ وعربدة، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدِّين قطعَ ذلك فلم يستطيعوا إزالته، وأهله أخف الناس أرواحاً، وأطبع نوادر، وأحملهم لمزاحٍ بأقبح ما يكون السَّبّ، قد مَرَنوا على ذلك فصار لهم دَيْدَناً حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً "(٥) .

---

(١) البيتان في تحفة القادم: ١٤٧ .
(٢) جمع نَشَم وهو نوع من الأشجار تصنع منه القِسي .
(٣) نفح الطيب: ٣/ ٢١٢ .
(٤) الوادي بمصطلح أهل الأندلس هو النهر .
(٥) نفح الطيب: ٣/ ٢١٢ .

وقد أطال الحديث ــ بعد ذلك ــ عن قرطبة بمايربو على ثلاث صفحات؛ ولكون هذه المدينة عاصمة الإسلام الأولى في الأندلس فقد ارتدَّ إلى التاريخ ينتخب منه بعض مفاخر المدينة، ولم يسلم حديثه عنها من الاستطراد، فقد ذكر قصةً عن الأمير الأموي الحكم بن هشام المعروف بالرَّبضيّ(توفي عام ٢٠٦هـ) مع فقهاء قرطبة استغرقت مايربو على صفحة(١)؛ لكن حديثه عن المدن الأخرى كان أميل إلى التركيز والاقتصار على ذكر الميزات الخاصّة بهذه المدن وأهلها؛ من ذلك حديثه عن مرسية حيث قال عنها: بأنها: "حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها من الصَّرامة والإباء ماهو معروف مشهور، ووادِيها قسيم وادي إشبيلية، كلاهما ينبع من شقورة، وعليه من البساتين المتهدّبة الأغصان، والنواعير المطربة الألحان، والأطيار المغرّدة، والأزهار المتنضّدة(٢)، ماقد سمعت، وهي من أكثر البلاد فواكه وريحاناً، وأهلها أكثر الناس راحاتٍ وفُرَجا .. وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شَوْرَتَها(٣) لاتفتقر في شيء من ذلك إلى سواها .. وقد اختصت بالبُسُطِ التّنتليّة(٤) التي تُسَفَّرُ لبلاد المشرق، وبالحُصُرِ التي تُغَلَّفُ بها الحيطان المبهجة للبصر، إلى غير ذلك ممايطول ذكره،ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال "(٥) .

أما خاتمة رسالة الشَّقُنديّ فقد ضمّنها اعتذاراً عن عدم استقصائه لوصف مدن الأندلس، فهو -كمايقول- لم يقصد إلى ذلك، بل قصد العواصم الإدارية لمناطق الأندلس في عهده، " أما علماؤها

(١) نفح الطيب: ٣/ ٢١٤ ، ٢١٧ .
(٢) أي بعضها فوق بعض لكثرتها .
(٣) الشَّورة: اللباس والزّينة .
(٤) التَّنتل : القصيرة، ولعله يعني نوعاً من البُسُط المطرّزة والقصيرة .
(٥) نفح الطيب: ٣/ ٢٢٠ .

وشعراؤها فإني لم أعرض منهم إلا لمن هو في الشهرة كالصَّباح، وفي مسير الذِّكر كمسير الرِّياح "(١) . ثم ذكر مستطرداً قصته مع رجل خراساني قَدِمَ الأندلس وعندما سُئل عن علمائها وكتابها وشعرائها، أجاب بعبارة واحدة؛ وهي " كَبَّرْتُ " ، فلم يدرك الشَّقُنديّ مقصده بل استبرد جوابه، لكن أحد الجلوس فَسَّرَ مقصد الخراساني؛ فهو يشير إلى بيت المتنبي(٢):

كَبَّرتْ حَولَ دِيارِهِم لَمّا بَدَت ∴ مِنها الشُموسُ وَلَيسَ فيها المَشرِقُ

فاعتذر الشَّقُنديّ للخراساني وقال له: " قد ــ والله ــ كَبِرْتَ في عيني بقدر ماصَغُرَتْ نفسي عندي، حين لم أفهم نُبْلَ مَقصدِك، فالحمد لله الذي أطلع من المغرب هذه الشموس، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المختار من صفوة العرب،وعلى آله وصحبه،صلاة متصلة إلى غابر الحقب"(٣) .

فكأن الشَّقُنديّ وهو يختم رسالته أراد أن ينتزع شهادة تؤيد كل ما ذهب إليه من الفخر ببلده وأهله من رجل مشرقي، ولذا أورد هذه القصة في خاتمة رسالته ليكون الحكم بتفضيل الأندلس آخر مايطرق الأسماع .

(١) نفح الطيب: ٣/ ٢٢٢ .
(٢) ديوان المتنبي بشرح الواحدي: ٤١ .
(٣) نفح الطيب: ٣/ ٢٢٢ .

سادساً: رسالة في المفاخرة بين

والفارسية فيهم غير منكرة .·. وكلهم لأبيه حيزن سلف[1]

البلدان للسان الدّين بن الخطيب[2]

نرى روح المنافسة التقليدية بين الأندلسيين والمغاربة تستمر بعد ذلك في عصر بني الأحمر، ويمكن استقراء ذلك في الرسائل التي اختصّت بالتّفاضل بين البلدان؛ من ذلك رسالة كتبها لسان الدين بن الخطيب وسمّاها " مفاخرات مالَقَةَ و سلا "[3] وهي مفاضلة بين المدينة الأندلسية "مالقة"، والمدينة المغربية "سلا"[4] شملت مختلف

---

(١) هذا البيت من بحر "البسيط التام" وهو فى ديوان أوس بن حجر ص٧٥

(٢) هو ذو الوزارتين لسان الدّين أبوعبدالله محمد بن عبدالله السّلماني؛ ولد سنة ٧١٣هـ، كان أحد أبرز أعلام الأندلس في القرن الثامن الهجري، فكان سياسياً بارزاً، وكاتباً بارعاً، وشاعراً مُميَّزاً، كما كان مؤلّفاً مُكثراً؛ من أشهر مابقي من مؤلفاته: الإحاطة في أخبار غرناطة، ريحانة الكُتّاب ونجعة المنتاب، جيش التوشيح، اللّمحة البدرية في الدولة النّصريّة، الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، شرح رقم الحُلل في نظم الدُّول . مات – رحمه الله – مقتولا في مدينة فاس سنة ٧٧٦هـ نتيجة لمكيدة دبّرها له بعض خصومه . انظر عنه: نثير الجمان في نظم فحول الزمان: ٥٨-١١٣، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزّمان: ٢٤٢-٢٩٢ ،نفح الطّيب (في مواضع كثيرة منه، فالنّفح ألفَ –في الأصل– ترجمة لابن الخطيب)، وانظر أيضاً لسان الدّين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري لمحمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط١ ١٣٨٨هـ .

(٣) وردت الرسالة في ريحانة الكُتّاب: ٢/٣٥٥-٣٦٠ ، وفي كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس: ٥٧-٦٦ ، وستكون الإحالة على المصدر الأخير لكون الرسالة محققة فيه بصورة أفضل .

(٤) مدينة قديمة، متوسطة الحجم، يحاذيها المحيط الأطلسي شمالا، تقع إلى الشمال الغربي من مدينة الرّباط، أحدث فيها الموحدون بنايات كثيرة. انظر الروض المعطار: ٣١٩، معجم البلدان: ٣/٢٣١ .

النواحي؛ الحضارية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وهذه النواحي تشمل الجوانب التي حددها ابن الخطيب في مقدمة الرّسالة للمفاضلة بين المدينتين وهي " المنعة والبقعة والشّنعة[1] والمساكن والحضارة والعمارة والإثارة والنّضارة "[2] .

ومع ماكان للمغرب من أيادٍ بيضاء على لسان الدين بن الخطيب ومدينة سلا خاصّة حيث لجأ إليها وقت محنته إلا أنّ ابن الخطيب لم ينفك من نزعته الأندلسية فأظهر تحيّزاً واضحاً في مفاضلته بين المدينتين؛ ففي مطلع الرّسالة يكشف أنه مضطر إلى هذه المقارنة بين المدينتين إجابة لسؤال وُجِّهَ إليه في ذلك وإلاّ فمالَقَةُ " أرفعُ قدراً، وأشهرُ ذكراً، وأجلّ شأناً، وأعزّ مكاناً، وأكرم ناساً، وأبعد التماساً، من أنْ تُفاخَرَ أو تُطاوَل، أو تُعارَض أو تُصاوَل، أو تُراجَعَ أو تُغاوَل[3] "(٤) ، والكاتب بهذا التّقديم يكشف عما ستكون إليه المفاخرة أو المفاضلة بين المدينتين،؛ فـ"مالقة" هي الأفضل دائماً حتى لانكاد نجده يذكر مَزِيّة واحدة لـ"سلا" من أوّل الرّسالة إلى آخرها؛ ففي جانب الخصائص الجغرافية للمدينتين -مثلا- نجده يقول: " خَصَّ الله مالَقَةَ بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها، إذ جَمَعَتْ بين رمثِ الرِّمال وخصب الجبال، وقامِرَةُ(٥) الفلاحة المخصوصة بالاعتدال، والبحر العديم الصُّداع، الميسَّرة

(١) الشّنعة: فسّرها المحقق بالشُّهرة والسُّمعة، وهذا مايوافق السياق الذي جاءت به بعد ذلك .
(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٥٧ .
(٣) تُصاوَل من المُصاوَلة وهي المُواثبة، وصالَ الرَّجل على قِرْنِه أوقع به فعلاً، أما المُغاوَلة فهي المبادرة بالغارة، وغاله أخذه من حيث لم يَدْر .
(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٥٧ .
(٥) فسّرها محقق المشاهدات بأنها مخازن المحصولات الزراعية، والمقصود أنّ تربتها خصبة وافرة الإنتاج، كثيرة الخيرات .

مراسيه للحطِّ والإقلاع، والصَّيد العميم الانتفاع، جبالها لـوزٌ وتـين، وسهلها قصورٌ وبساتين، وبحرها حيتانٌ مُرتَزِقَةٌ فـي كـل حـين، ومزارعها المُغلَّةُ عند اشتداد السنين ... وسلا بلدُ الرِّمال، ومراعـي الجمال، بَطِيحَةٌ لاتُنجب السَّنابل، وإن عرفت المطـر الوابـل، جـرد الخارج، وبحرها مكفوف بالعَنَب والمدارج، ووديها ملْـحُ المـذاق، مُستَمَدّ من الأجاج الزّعاق(١) ... وشابلها(٢) مقصورٌ على فصـل، وكم لِشَوْكه من شَبا نصل،عَدمت الفاكهة،والمنتزهات النّابهة "(٣) .

أمّا في جانب الحضارة فأيّ مقارنة بين المدينتين؟! فـ"مالقة" اجتمع فيها رغد العيش واستظلّت بنعيم الحياة، ففي كل موضعٍ منها ينطق الجمال والبهاء، وتظهر معالم الحضارة من البـرَك والجنـات، والبساتين والقصور، والملابس الفاخرة، والاحتفالات الباهرة؛ بينمـا "سلا" لايُرى فيها من ذلك كلّه شيء، أو كما يقول ابـن الخطيـب:" ولَنَقُلْ في الحضارة بمقتضى الشّواهد المختارة، ولا كالحلي والطِّيب، والحُلل الدِّيباجيّة والجلابيـب، والبسـاتين ذات المـرأى العجيـب، والقصور المبتناة بسفوح الجبال، والجنّات الوارفة الظّلال، والبِـرَكِ النّاطقة بالعذب الزُّلال، والملابـس المختالـة فـي أفنـان الجمـال، والأعراس الدّالّة على سَعَة الأحوال، والشّورات المُقَدَّرات بالآلاف من الأموال . وأمّا "سلا" فأحوال رقيقة، وثياب فـي غالـب الأحـوال خليعة(٤)، وذمم مُنحطّة، ونفقات تحصرها من التّقتير خُطّة، ومساجد فقيرة، وقيساريّة حقيـرة، وزِيّ مجلـوب، وحلـي غيـر معـروف ولامنسوب ..."(٥) .

---

(١) الماء المرّ الغليظ، لايُطاق شُرْبُه .
(٢) نوعٌ من السَّمك اشتُهرت به سلا .
انظر الروض المعطار: ٣١٩ .
(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٦٠ .
(٤) الثياب الخليعة: هي الثياب القديمة التي خلعها أصحابها، ولايلبس خليع الثياب إلا الفقراء .
(٥) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٦١، ٦٢ .

ويبدو أن ابن الخطيب كان متحاملاً على مدينة "سلا" فلم يذكر لها أدنى ميزة في جغرافيتها وغلاتها بينما نجد بعض كتب البلدان تذكر لها ميزات كثيرة(١) .

ولم يكن حظّ "سلا" في جانب العمارة والبنيان بأحسن حالاً مما سبق فقد صوّرها ابن الخطيب صغيرةً لاتوازي حيّاً من أحياء "مالَقَة"، ثلثها مقبرة وثلثها خرائب، وبقيتها بيوت قش وقصب وأحواش إبل وبقر؛ بينما "مالقة" بيوت مزدحمة، كثيرة الفنادق والمساجد وطرق غاصّة بالخلق ودكاكين حافلة بالبضائع؛ يقول ابن الخطيب بادئاً حديثه عن مالَقَةَ: "وأمّا العمارة، فأين ذهب رائدها، وعلام يُعَوّل شاهدها، ومادار عليه السُّور متراكم متراكب، مُنْتَسَجَةٌ مبانيه كما تفعل العناكب، فناديقه كثيرة، ومساجده أثيرة، وأرباضه حافلة، وفي حُلَل الدَّوح رافلة، وسِكَكُهُ غاصّة، وأسواقه بالدّكاكين متراصّة، أُقْسِمُ لَرَبْضٍ من أرباضها أعْمَرُ من مدينة سلا، وأبعد عن وجود الخلا، وأملأ مهما ذكر الملأ؛ بلدٌ مُنقطعٌ مُنْخَرِق، ثُلُثُه مقبرة خالية، وثلثه خرب بالية، وبعضه أخصاص وأقفاص(٢)، ومعاطن وقلاص، وأواري بقر تحلب، ومعاطن(٣) سائمة تجلب "(٤) .

---

(١) فالحميريّ يقول عنها مثلاً: "وأما سلا الحديثة فهي منيعة من جهة البحر، لايقدر أحد من أهل المراكب الوصول إليها من جهته، وهي حسنة في أرض رمل، ولها أسواق نافعة، وتجارات ودخل وخرج، ولأهلها سعة أموال، والطعام بها كثير رخيص جدّاً، وبها كُرُوم وغلاّت وبساتين ... ويُتَجَهّز منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية ... وفي المدينة المحدثة قيسارية عظيمة وحمّام وفنادق ..." . الرّوض المعطار: ٣١٩ .

(٢) الخُصُّ: البيت من القصَب، والقفصُ في الأصل محبس الطّير، وهو هنا على سبيل التشبيه بها لِصِغَر بيوتهم وحقارتها .

(٣) المعاطن: مرابض الإبل، والأواري هي الأحواش .

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٦٢ .

ومع أن ابن خطيب في هذه الرّسالة أسرف في ذم سلا إلا أنا نجده في مقامة أنشأها في وصف مدن الأندلس ثم مدن المغرب وسمّاها "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والدّيار"(١) قد ذكر قدراً كبيراً من المحاسن لهذه المدينة(٢)، ولكن وفق الأسلوب الذي بنى عليه المقامة حيث كان يبدأ بذكر محاسن المدن التي تَعَرَّض لها ثم يختم حديثه عن كل مدينة بذكر بعض عيوبها(٣) .

(١) وردت هذه المقامة في ريحانة الكُتّاب: ٢/٢٧٩-٣١٦ ، وفي كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ٦٩-١١٥، كما طُبعت مستقلة بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانة .

(٢) فهو يقول عنها في هذه المقامة:" ذات الوسامة والنّضارة، والجامعة بين البداوة والحضارة، معدن القطن والكتّان، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الأجفان... والخصب الذي لايبرح، والبحر الذي يأسو ويجرح، وشقها الوادي يتمّم محاسنها ويشرح". - معيار الاختيار في ذكر المحاسن والديار، تحقيق د.محمد كمال شبانه: ١٥٢ .

(٣) لن أتعرّض لهذه المقامة فهي لاتدخل تحت نطاق هذه الدّراسة المختصّة بالرّسائل فحسب .

خاتمة

حاولتُ - من خلال هذا البحث - رصد جانبٍ مُحدَّدٍ من الجدل الثقافيّ والأدبيّ الذي اصطبغت به العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة، ولمّا كان " البحث الشّامل في موضوع التّبادل والتّعاون بين المغرب والأندلس في المجال الفكري والثّقافي يتطلّب ... مجلدات وأُطروحات لمحاولة الإحاطة به وحصر ميادينه"[1] آثرتُ الاقتصار على رصد صدى هذه العلاقة التّنافسيّة بين البيئتين في فن المراسلات فحسب، وذلك طلباً للتّركيز والتّعمّق في هذا الجانب .

فتناولتُ بالبحث مجموعة من الرّسائل الّتي اختصّت بموضوع التّنافس بين البيئتين تحديداً، وحرصتُ أثناء قراءتي لها أن أجعلها في نسقها التّاريخيّ؛ بدءاً برسالة ابن الرّبيب القيروانيّ التي كتبها في مطلع القرن الخامس الهجريّ، وانتهاءً برسالة لسان الدّين بن الخطيب في القرن الثامن الهجريّ، والمتتبّع لهذه الرّسائل سيجد أثراً بيّناً للنّسق التّاريخيّ على بعض هذه المراسلات .

ولعلّ من أبرز ما تكشف عنه هذه الدّراسة؛ أنّ الصّلات بين الأندلس والمغرب مُتجذّرة في أعماق التّاريخ؛ وفي العهد الإسلامي وجدنا صلةً عضويّة فرضتها جملة من المعطيات؛ الدينية واللغوية والجغرافية، ممّا جعل التّفاعل بين المنطقتين يؤتي ثماره في كلّ نواحي الحياة، وعلى الرّغم من تأخُّر المغرب زمنيّاً - مقارنة بالأندلس - بمدّةٍ تربو على قرنين من الزّمان في ولوج أبواب الثقافة

(١) التّعاون المغربي الأندلسي في مجالات الفلسفة والعلوم الدّقيقة، محمد زنيبر؛ ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب : ١٠٧، ١٠٨ .

العربية الإسلامية ولوجاً قوياً إلاّ أنّ الاتصال بين العُدْوَتين استحكم – بعد ذلك – وظلّ قوياً إلى نهاية الوجود العربي بالأندلس ، بل وحتى بعد زوال ذلك الوجود فما نزال نلحظ في المغرب إلى يومنا هذا شيئاً من " مظاهر ذلك التّواصل الذي كان بين المغرب والأندلس رغم مرور قرون على نهاية الأندلس" فقد " امتزج هذا التراث الأندلسي بالتراث المغربي فأصبحا تراثاً مركّباً تركيباً مزجياً"(١) .

وبالنّظر للرّسائل التي تمّ الوقوف عليها من خلال هذه الدّراسة نجد:

١- أنّ رسالة ابن الرَّبيب القيروانيّ تناولت شخصيّة الأندلس الثقافيّة بقدرٍ كبيرٍ من الازدراء؛ فهي -كما يقول عنها – شخصيّة هزيلة يغلب عليها الادّعاء " فَشَجُعَ عندكم بذلك الجبان، وأقدمَ الهَيِّبان،ونَبُهَ الخامل، وعَلُم الجاهل، ونَطَقَ العَيِيُ، وشعر البَكِيُّ، واستنسر البُغاث،وتَثَعْبَنَ الحُفَّاثُ" ، كما أنّها بيئة تتلقّف كلّ واردٍ إليها فلاتُفرّق بين غثّ وسمين، لذا " إنْ بارت تجارةٌ أو صناعةٌ فإليكم تُجلب، وإنْ كَسدتْ بضاعةٌ فعندكم تَنْفُق"، أمّا أهل العلم في بلاد الأندلس فَمُقصِّرون غاية التّقصير "وعلماؤكم -مع استظهارهم على العلوم- كلُّ امرىءٍ منهم قائمٌ في ظلِّه لايَبْرَح، وثابتٌ على كَعْبِه لايتزحزح، يخافُ إنْ صَنَّفَ أنْ يُعَنَّف، أو تَخْطَفُهُ الطَّيرُ أوتهوي به الرِّيحُ في مكانٍ سحيق". وبذا تكون رسالة ابن الرَّبيب بأُسلوبها

(١) العناية بتراث الأندلس في المغرب وأسبانيا ، د.محمد بن شريفة؛ ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب : ٢٧ .

الاستفزازي أقوى حافزٍ لتحريك كُتّاب الأندلس ومُفكّريها للدّفاع عن شخصيّتهم الثقافيّة .

٢- جاء رَدُّ أبي المغيرة بن حزم غاية في المُجاملة، فبدل أن ينصرف في رسالته لردّ التّهمة، وإثبات التّميُّز الأندلسي، انصرف نحو رسالة ابن الرّبيب فأخذ يُثني على بلاغته وحُسن بيانه فيها، ثمّ أخذ يتلطّف في الرّدّ تلطّفاً أفضى إلى طول الرسالة؛ لذا لم يكن غريباً أنّ نجدَ ابن بسّام - وهو الذي ألّف ذخيرته لإثبات شخصيّة الأندلس الأدبيّة - يكتفي بإيراد أجزاء يسيرة من هذه الرّسالة، أو على حدّ قوله: " وخَرَجَ أبو المغيرة في رسالته إلى هذا التّطويل؛ وبالغ في الاحتجاج بفصولٍ هي عَادِلَةٌ عن هذا السَّبيل " .

٣- تعدّ رسالة أبي محمد بن حزم أثرى هذه الرّسائل مادَّةً؛ حيث عالج فيها جُملة من القضايا، منها: فضيلة بلاد الأندلس، وتفنيد الدعوى القائلة بأنّ الأندلسيين لم يُؤلّفوا عن منطقتهم ورجالاتها، كما تطرّق - وبشيء من التّفصيل - لتحديد الشّخصيّة الأندلسيّة، مؤكّداً على تفرّد الأندلسيين في التأليف والإبداع في كثير من أبواب المعارف والعلوم، كما تناول كثيراً من إبداعات الأندلسيين العلمية والأدبية؛ وهو تناول يكشف عن سعة ثقافة ابن حزم، وإلمامه الكبير بالحركة الفكرية في بلده، كما تكشف عن مقدرةٍ علمية فريدةٍ في تقويم المُصنّفات المختلفة ونقدها،وهذا ماجعل هذه الرّسالة مصدراً مهمّا اعتمد عليه كثير ممن تناولوا تطوّر الحركة العلميّة في الأندلس .

٤- على الرّغم من كون رسالة ابن سعيد جاءت تتميماً لرسالة ابن حزم، حيث كتبها صاحبها بعد قرنين من الزّمان من كتابة

رسالة ابن حزم؛ إلاّ أنّها اتّسمت بغلبة سِمَةِ التّعداد للمُؤلَّفات والمؤلِّفين، ولم يتطرّق من خلالها لقضايا فكرية أو ثقافية كان يمكن أن تثري عمله، فكأنّه قصد إلى تتميم الجانب الإحصائي في رسالة ابن حزم، ولم يقصد إلى تتميمٍ مُوَسَّعٍ يشمل معاني الرّسالة المُتَمَّمَةِ كلّها .

٥- حملت رسالة الشَّقُنْديّ أسلوباً جديداً في إثبات الشخصيّة الفكريّة والحضارية للأندلس؛ فهي إلى جانب كونها سجلاً أدبياً وتاريخياً وعلمياً لبلاد الأندلس إلاّ أنّها اتّسمت بروح أدبيّة عالية، فهي - بحقّ - أغنى وأمتع وأوفر الرّسائل التّنافسيّة بالرّوح الأدبيّة، فكان من أبرز مَيزاتها غلبةُ التّفصيل والاستشهاد وضرب الأمثلة وإيراد القصص بأسلوب أدبيّ أخّاذ، وبعاطفة جيّاشة مازجت أجزاء الرّسالة كلّها .

٦- وأخيراً فإنّ ممّا جلّته هذه المراسلات - بصفة عامة- أنّ الأندلسيين استطاعوا وبكلّ اقتدار أنْ يُدلُّوا على المغاربة بسبقهم المعرفي والأدبي، ولم يستطع المغاربة - في المقابل - أنْ يُساجِلوا الأندلسيين الرّدَّ، وبقي دور المغاربة محصوراً في جانب الإثارة الأُولى لهذه القضيّة .

وبعد فإنّني لا أدّعي - في نهاية المطاف - أنّني أحطت بكلّ المعاني التي تطرّقت لها المراسلات التي تعرّضت لقضيّة التّنافس بين المغرب والأندلس، أو أنّني قلت فيها الكلمة الأخيرة؛ ولكنّي أزعم أنّي قدّمت قراءةً خاصّة لهذه النّصوص، حاولت من خلالها تلمّس كثير من المعاني والإشارات التي حفلت بها ، ولمّا كان من أبرز سمات

البحث العلمي التّجدد وعدم الثبات؛ لذا فإنّ هذه النّصوص التّرسليّة كما قرأتُها فألقت إليَّ بشيء من معانيها أتصوّر بأنّ باحثين آخرينَ - كذلك - سيتناولونها بالدّرس والتّحليل وستلقي إليهم بشيء جديد من أسرارها، ولكن حسبي - في النّهاية - أنّي اجتهدت فإن أصبتُ في بعض ماذهبتُ إليه فذلك بفضل الله وتوفيقه، وإنْ كانت الأخرى فأسأل الله أن لا يحرمني أجر المجتهدين .

فهرس المصادر والمراجع

- ابن حزم الأندلسيّ حياته وأدبه؛ د.عبدالكريم خليفة، دار العربية للطباعة والنشر- بيروت، ومكتبة الأقصى- عمّان، د.ط، د.ت .
- ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي، محسن حامد العيادي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، د.ط ١٩٧٢م .
- الإحاطة في أخبار غرناطة،للسان الدين بن الخطيب،تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٢ ١٣٩٣هـ .
- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلي، لابن سعيد الأندلسي، اختصره محمد بن عبد الله بن خليل، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية وغيرها- القاهرة، ط٢ ـ ١٤٠٠هـ .
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د.مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين- بيروت، ط٥ ـ ١٩٨٣م .
- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي، دار البشير- عمّان، ط١ ١٤٠٦هـ .
- أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية،محمد رضا الشبيبي، دار إقرأ-بيروت، ط٢ ١٤٠٤هـ .
- أساس البلاغة للزمخشري، تح عبدالرحيم محمود، دار المعرفة - بيروت، د.ط ١٣٩٩هـ .

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأبي العباس الناصري، تح وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب- الدار البيضاء، د.ط ١٩٥٤م .
- أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري = نثير الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان .
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"القسم الثاني"لابن الخطيب، تح ليفي بروفنسال، دار المكشوف- بيروت ط٢ ١٩٥٦م .
- إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي-القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ .
- أنموذج الزّمان في شعراء القيروان، لابن رشيق القيرواني، تح محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش، دار الغرب الإسلامي-بيروت ، ط٢ د.ت .
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، د.ط ١٩٧٣م .
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن عَميرة الضبي، دار الكاتب العربي- القاهرة ١٩٦٧م .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- صيدا وبيروت، دط، دت .

- البيان والتبيين،للجاحظ،تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٤ ١٩٧٥م .
- تاريخ الأدب الأندلسي"عصر سيادة قرطبة"د.إحسان عباس،دار الثقافة- بيروت،ط٥ ١٩٧٨م .
- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، أشرف على الترجمة د.محمود فهمي حجازي،الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، د.ط ١٩٩٣م .
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين- بيروت، ط١ ١٩٨٢م .
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د.عبدالرحمن بن علي الحجي، دار الإصلاح- القاهرة، طبعة مصورة عن الأولى ١٤٠٣هـ .
- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة د.حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ط ١٩٥٥م .
- تاريخ علماء الأندلس،لابن الفرضي، تح إبراهيم الإبياري، دار الكتب الإسلامية-القاهرة، ط١ ـ ١٤٠٤هـ .
- تاريخ قضاة الأندلس"المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" لأبي الحسن النباهي،دار الآفاق الجديدة- بيروت، د.ط ١٤٠٠هـ .
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د.محمد رضوان الدّاية، مؤسسة الرسالة - بيروت،ط٢ ـ ١٤٠١هـ .
- تاريخ النقد عند العرب، د.إحسان عبّاس، دار الثقافة-بيروت، ط٢ ١٣٩٨هـ .

- التّعاون المغربي الأندلسي في مجالات الفلسفة والعلوم الدقيقة، محمد زنيبر، ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب،أكاديمية المملكة المغربية-الرباط، ١٩٩٣م .
- تحفة القادم، لابن الأبار القضاعي، أعاد بناءه وعلق عليه د.إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي- بيروت ط١ ١٤٠٦هـ .
- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي- القاهرة،ط ٢ ـ١٣٩٠هـ .
- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لابن الكتّاني الطبيب، تح د.إحسان عبّاس،دار الشروق- بيروت والقاهرة، ط٢ ١٤٠١هـ .
- التكملة لكتب الصلة لابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) نشره وصححه: السيد عزّت العطار، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية- القاهرة، د.ط ١٣٧٥هـ .
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، للحميدي، تح إبراهيم الإبياري،دار الكتب الإسلامية- القاهرة ط٢ ١٤٠٣هـ .
- جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجريّ، د.امحمد بن عبّود، المعهد الجامعي-تطوان (المغرب)، د.ط ١٤٠٧هـ .
- حضارة الأندلس من خلال رسالتي ابن حزم والشّقنديّ، ضمن أبحاث ندوة التراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب، أكاديمية المملكة المغربية-الرباط، ١٩٩٣م .

- حضارة العرب في الأندلس؛ ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة- بيروت، د.ط ، د.ت .
- الحلة السيراء، لابن الأبار، تحقيق د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر- القاهرة ط١ ١٩٦٣م .
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول، تحقيق د.سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء ط١ ١٣٩٩هـ .
- الحياة العلميّة في عصر ملوك الطّوائف في الأندلس؛ د.سعد بن عبدالله البشريّ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- الرياض، ط١ ١٤١٤هـ .
- خريدة القصر وجريدة العصر"قسم المغرب والأندلس"، للعماد الأصفهاني، تح آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر- تونس، د.ط ١٩٨٦م .
- دول الطوائف منذ قيامها حتى فتح المرابطي، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط٢ ١٣٨٩هـ .
- دولة المرابطين في المغرب والأندلس «عهد يوسف بن تاشفين»، د.سعدون عباس نصر الله، دار النهضة العربية- بيروت، ط١ ١٤٠٥هـ .
- ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبدالعظيم، دار نهضة مصر-القاهرة،د.ط ١٩٨٠م .
- ديوان ابن شُهيد، جمع وتح يعقوب زكي، راجعه د.محمود علي مكّي، دار الكاتب العربي-القاهرة، د.ط ، د.ت .

- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الواحدي، تح فريدريخ ديستريصي، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، طبعة مصورة عن طبعة برلين ١٨٦١م .
- ديوان الجراويّ، صنعة الدكتور علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين – دمشق،ط١ ١٩٩٤م .
- ديوان المعتمد بن عبّاد، جمعه وحقّقه د.حامد عبدالمجيد ود.أحمد أحمد بدوي، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط٣ ٢٠٠٠م .
- ديوان امرئ القيس، تح محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف- القاهرة، ط٤ ١٩٨٨ م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، د.ط ١٩٧٨م .
- ديوان كثير عزّة، جمعه وشرحه د.إحسان عباس، دار الثقافة- بيروت، د.ط ١٣٩١هـ .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تح د.إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا ١٩٨١م مصورة عن ط١ ١٩٧٩م .
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، تح د.إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط١ ١٩٧٣م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د.محمد رضوان الداية،دار طلاس – دمشق، ط١ ١٩٨٧م .

- رسائل ابن حزم الأندلسي، تح د.إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت ط٢ ١٩٨٧م .
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تح د.إحسان عباس، مكتبة لبنان- بيروت، ط٢ ١٩٨٤م .
- ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، لسان الدين بن الخطيب، تح محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط١ ١٤٠١هـ .
- زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر، لصفوان بن إدريس التجيبي، تح عبدالقادر محداد،دار الرائد العربي- بيروت ١٩٨٠م .
- سوائر الأمثال على أفعل، حمزة بن الحسن الأصفهاني، تح د.فهمي سعد، عالم الكتب-بيروت، ط١ ١٤٠٩هـ .
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، لأبي علي المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل- بيروت، ط١ ١٤١١هـ .
- شعراء إسلاميون، د.نوري حمّودي القيسي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية- بيروت، ط٢ ١٤٠٥هـ .
- الصلة، لابن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة، د.ط ١٩٦٦م .
- طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزّبيدي (ت٣٧٩هـ)، تح محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف- القاهرة، ط٢- ١٩٨٤هـ .

- طوق الحمامة في الألفة والألاّف، لأبي محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)، تحقيق د. الطّاهر أحمد مكّي، دار المعارف- القاهرة ط٤ ١٤٠٥هـ .
- العناية بتراث الأندلس في المغرب وأسبانيا ، د.محمد بن شريفة؛ ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، أكاديمية المملكة المغربية-الرباط، ١٩٩٣م
- فجر الأندلس، د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر-القاهرة، ط١ ١٩٥٩م .
- فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق فرانشكو قدارة، وخليان رابارة، دار الآفاق الجديدة-بيروت، ط٢ ١٣٩٩هـ .
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن خاقان، تح د.حسين يوسف خريوش،مكتبة المنار- الزرقاء (الأردن)، ط١ ١٤٠٩هـ .
- الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد، مكتبة المعارف- بيروت، د. ط، ود. ت .
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر – بيروت، د.ط، د.ت .
- مجمع الأمثال للميداني، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبيي،القاهرة، د.ط، د.ت .
- المرقبة العليا فيمن استحق القضاء والفتيا=تارخ قضاة الأندلس
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية ١٩٨٣م .

- المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية الكلبي، تح إبراهيم الإبياري وآخرين، المطبعة الأميرية – القاهرة، د.ط ١٩٥٤م
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان، تح محمد علي شوابكة، دار عمّار ومؤسسة الرسالة- بيروت، ط١ ــ ١٤٠٣هـ .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة، ط١ ــ ١٣٦٨هـ .
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تح د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١ ــ ١٩٩٣م .
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د.ط ــ ١٣٩٩هـ .
- معيار الاختيار في ذكر المحاسن والديار، لسان الدين بن الخطيب، تح د.محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث بين المغرب والإمارات، د.ط ــ ١٣٩٦هـ .
- المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، تح د.شوقي ضيف، دار المعارف-القاهرة، ط٣ ــ ١٩٧٨م .
- ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، د.مصطفى السيوفي، عالم الكتب ــ بيروت، ط١ ١٤٠٥هـ .
- النبوغ الغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ط٢ ١٣٨٠هـ .

- نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان"أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن"، لأبي الوليد بن الأحمر، تح د.محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٢ ١٤٠٧هـ .
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لأبي الوليد بن الأحمر، تح د.محمد رضوان الداية، دار الثقافة- بيروت، ط١ ١٩٦٧م .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تح د.إحسان عباس ،دار صادر- بيروت، د.ط ١٣٨٨هـ .
- الهويّة الثقافية الأندلسية من خلال رسالة ابن حزم، د.امحمد بن عبود، ، ضمن بحوث ندوة التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، أكاديمية المملكة المغربية-الرباط، ١٩٩٣م
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصّفدي (٧٦٤هـ)، تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ .
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تح د.إحسان عباس، دار صادر- بيروت، د.ط ١٣٩٧هـ.